خامسًا: الدولة الوطنية

١- هل تعود الملكيات؟
٢- وراثة مصر.
٣- مصر أم الجميع.
٤- هل تنهار الدولة الوطنية؟
٥- المفتاح السحرى.
٦- أين الشارع العربى؟
٧- المواطنة.
٨- هل انتهت الطبقة الوسطى؟
٩- أخلاقيات الطبقة الوسطى.

١- هل تعود الملكيات؟ (*)

بدأت الملكيات القديمة التى انهارت بفعل الزمن وتطور التاريخ تشرئب بأعناقها من جديد وكأن التاريخ يعود إلى الوراء، ويبدأ من المربع الأول، من نقطة الصفر، وكأن ما تلا الملكيات من نظم جمهورية واشتراكية وقومية لم تكن بفعل قوانين التاريخ وتطور الزمن. وهل كان النضال ضد الملكيات المطلقة وتعاون معظمها مع القوى الاستعمارية عبثا وطنيا وحركة ضد مسار التاريخ؟ لطالما كان النضال الوطنى ضد القصر والإنجليز فى تاريخ مصر الحديث، قوة الاستبداد فى الداخل وقوى الاستعمار فى الخارج. لا يعود التاريخ إلى الوراء. ولا هو دائرة تعود كما بدأت فى عود أبدى يبدأ من الصفر دون تراكم تاريخى يدفعه دائما إلى الأمام.

وتجارب بعض الدول فى عودة الملكية بعد الجمهورية ضئيلة للغاية. فقد عادت الملكية إلى فرنسا بعد هزيمة نابليون، روح الثورة الفرنسية فى واترلو، وصعود نابليون الثالث، ملكا على فرنسا، وعودتها إلى حدودها الطبيعية. وعادت الملكية إلى إسبانيا بعد الحرب الأهلية ونجاح الفاشيين فى الشمال فى كسب الحرب ضد الجمهوريين فى الجنوب. وعادت الملكية إلى إنجلترا بعد ثورة كرومويل، فالملكية روحها، بالرغم من أنها روح ميتة لا تفعل ولا تقرر، مجرد رمز، والسلطة فى أيدى رئيس الوزراء المنتخب. بل لقد حول أحد الأمراء العرب الإمارة إلى ملكية دستورية ترد الاعتبار للمعارضة ولمجلس أمة منتخب. فما أساءت إليه الإمارة أحسنت إليه الملكية. فالملكية هى نهاية المطاف وليست الجمهورية، بالرغم من أن هيجل جعلها نهاية الجدل، من الملكية إلى الغوغائية إلى الجمهورية. وهو مسار نظم الحكم فى الوطن العربى فى مصر وتونس وليبيا وسوريا والعراق واليمن.

(*) جريدة الاتحاد: ١ مايو ٢٠٠٤، جريدة الزمان: ٢١ إبريل ٢٠٠٤م.

والآن تظهر دعوات العودة إلى الملكيات بالنسبة لدول البلقان التى مزقتها الحروب الأهلية بعد غياب الشخصيات الزعامية التى استطاعت الحفاظ على وحدة الأوطان بالرغم من تنوعها العرقى والثقافى مثل تيتو، وبعد سقوط الأيديولوچيات مثل الماركسية التى استطاعت توحيد الفلاحين والعمال والطبقات العاملة كمقدمة للحفاظ على وحدة الدول.

وهو أحد الافتراضات السارية فى أفغانستان بعد الانقلاب على الملك داود من الاشتراكيين ثم انقلاب الاشتراكيين بعضهم على بعض، ثم انقلاب الإسلاميين بمساعدة الولايات المتحدة على الشيوعيين فظهر حكم الطالبان، ثم انقلاب الولايات المتحدة على الطالبان بدعوى إيواء تنظيم القاعدة بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م.

وهى الدعوة نفسها التى تظهر فى أجهزة الإعلام الغربية بالنسبة إلى العراق الآن. فقد حكم العراق فيما يقال طاغية قضت عليه قوات العدوان الأمريكى البريطانى. ثم تحولت إلى طاغية بديل. تعتقل وتدمر وتحاصر. وخسر الشعب العراقى حريته مرتين، مرة بيد الحاكم من الداخل، ومرة أخرى بيد الحاكم من الخارج. المرة الأولى قهر يحافظ على وحدة العراق أرضًا وشعبًا، والمرة الثانية قهر يقضى على وحدة العراق شعبا وأرضا. ويمهد للتقسيم بيده مباشرة أو بإشعال حرب أهلية يتمناها بيد العراقى حتى يثبت للعالم أن وجوده بالعراق كان ضروريا، وأن الإسراع بالرحيل أدّى إلى تقسيم العراق. فعودة الملكية إلى العراق خير حافظ له. فهى ملكية مستنيرة فى الداخل، ومعتمدة على الغرب فى الخارج، وليبرالية فى الاقتصاد والسياسة على حد سواء.

وفى مصر أيضا ينتظر ابن الملك القديم لإنقاذ مصر من وطأة ثورة يوليو ١٩٥٢ بجمهورياتها الثلاث، الأولى التى اختارت الاشتراكية والقومية طريقا لها، والثانية التى انقلبت إلى الرأسمالية والقطرية، والثالثة التى استمرت فى سياسات الثانية مع قلة فى المناورة وزيادة فى رقعة الفساد، ومزيد من التبعية للخارج، وقبولا لتهميش مصر فى فلسطين والعراق.

وهى الدعوة نفسها التى تظهر لإيران. فإيران أيام الشاه فيما يقول أعداء الثورة كانت أفضل بكثير من بعد الثورة. كانت تنعم بالأمان أولا ثم تحولت بعد الثورة إلى قهر علنى باسم التسلط الدينى وولاية الفقيه عند المحافظين لأن إيران الثورة وإيران الجمهورية فى عهد الإصلاحيين لم تقدم شيئا، ولم تحول الشعارات إلى أفعال. الفقر والبطالة وسوء توزيع الدخل، كلها باقية قبل الثورة وبعدها. وأبناء الشاه جاهزون للعودة حتى ولو كان ذلك على أسنة الرماح.

والسبب فى ذلك أن البديل عن الملكيات الصريحة قبل الثورات كان ملكيات مقنعة بعدها. إنما الخلاف فى العائلة الحاكمة، الموروثة قبل الثورة جيلا وراء جيل أو المكتسبة بقوة السلاح بعد الثورة رئيسا وراء رئيس. فقد حكم بعد الثورة الضباط الأحرار الذين لا يختلفون عن طبقة الأمراء قبل الثورة فى شىء فى احتكار السلطة، والمكاسب الشخصية، وتكوين طبقة خاصة. لا فرق بين العائلة المالكة قبل الثورة والجيش بعد الثورة. فالسلطة داخل السلطة المالكة، الأخ أو الابن، والسلطة داخل الجيش من ضابط إلى ضابط، من رئيس إلى نائب رئيس أو من رئيس إلى وزير دفاع. وكلاهما طويل العمر. يحكم منذ البداية حتى النهاية، رئيس إلى الأبد، مدى الحياة، لا يتقيد بفترة أو فترتين رئاسيتين. وهو بالضرورة من الحزب الحاكم الذى يجرى الانتخابات، وليس من أحزاب المعارضة المشروعة أو غير المشروعة. فمهما تداولت السلطة فى الظاهر من هذا إلى ذاك فالحزب الحاكم واحد على مدى نصف قرن، حزب الثورة. وإن مات الرئيس، رئيس الجمهورية، يعيش الرئيس، ابن الرئيس الأول، تماما مثل النظام الملكى السابق، مات الملك عاش الملك. والملك فى حاجة إلى ذرية من الذكور لأنه «لعن الله قوما ولّوا أمرهم امرأة». بل ويتغير الدستور الجمهورى حتى يتم تفصيله طبقا لمواصفات الوريث الجديد وبالإجماع دون معارضة أحد. ويحكم الأموات مع الأحياء بالصور فى الميادين العامة وعلى نواصى الطرقات وعلى واجهات المنازل. الأب يحكم من السماء والابن يحكم من الأرض حتى إذا خرج أحد على نظام الأرض فلن يستطيع أحد الخروج على نظام السماء.

وقد يكون السبب فى ذلك فشل تجارب التحديث بعد الثورة وضياع الاستقلال الذى حققته فى النضال الوطنى قبل الثورة والاستقلال السياسى بعدها. فقد زاد قهر

الدولة فى الداخل وهى التى أتت باسم حركة التحرر الوطنى، ورئيسها هو زعيم جبهة التحرير الوطنى. آثر أن يحكم بمفرده وتصفية خصومه السياسيين حتى يتفرد بالزعامة والسلطة إلى الأبد. ينعم بمآثر الاستقلال والوحدة. بدلا من خندق المجاهدين يعيش فى قصر الملوك السابقين. وتكثر النياشين على الصدر، وتتكاثر الألقاب. وإذا تحداه تيار أو زعيم آخر فهى مؤامرة لقلب نظام الحكم بالتعاون مع أعداء الأمة والاستعمار القديم المترصد بالثورة والدولة الوطنية المستقلة. اشتد القهر فى الداخل وازدادت التبعية للخارج للحصول على أحلاف جديدة. ويصبح عدو الأمس، الاستعمار، حليف اليوم فى التحديث والاستثمار والتنمية والتخطيط والمساعدات الأجنبية. ونظرا لغياب الرقابة الشعبية ينتشر الفساد، ويثرى الحاكم، وتُهرب الأموال إلى الخارج أمانا من غدر الزمان. ويحكم باسم الطبقة بديلا عن المؤسسات الشعبية. وتثرى الطبقة، وتجمع بين السلطة والثروة. ويتحول الحكم من حكم ما بعد الثورة إلى حكم رجال الأعمال. يتقاسمون الثروة بعد التلاعب بالأسعار، الحديد والأسمنت والعملات الأجنبية، باسم الخصخصة، وتشجيع رأس المال الوطنى، وجلب رأس المال الأجنبى، وحرية الاستيراد والتصدير، والمنافسة والربح عملا بقوانين السوق. ويتم التهرب من الضرائب، وتحويل رءوس الأموال الوطنية عبر فروع البنوك الأجنبية إلى الخارج، وتؤخذ الأموال من البنوك بلا ضمانات. وتتضخم ملفات الرشوة والفساد. ويفقد الشعب المجاهد قبل الدولة الوطنية ثقته فى الحكام. ويصعب على الأغلبية الانخراط فى الحركات السرية أو المغادرة للهجرة أو ينضم إلى أحزاب المعارضة التى تعارض بعقلية السلطة البديلة فيصاب بالفتور واللامبالاة. ويدير ظهره للدولة حاكما ومحكوما، وينتظر قضاء الله، والله مع الصابرين، حتى يأتى يوم الفرج.

وبالإضافة إلى عيوب الدولة الوطنية هناك مآثر الملكية والتى يتحسر الجميع على ضياعها. ويحن البعض إلى نظم الحكم قبل الثورات الأخيرة. فالملك المستنير خير من المستبد العادل. والملكية الدستورية خير من الجمهورية الرئاسية.

فى الملكية، فيما يُشاع، ازدهرت الحرية، حرية الفرد، وحرية الصحافة، وحرية الانتخابات، وحرية الترشيح والتمثيل فى البرلمان. والوزارة المسئولة أمامه. والتعددية الحزبية وحرية الاختيار مكفولة للجميع بما فى ذلك الإخوان والشيوعيون. كانت هناك

ديمقراطية الحكم على الأقل فى الشكل، تداول السلطة، والحكومة والمعارضة بالرغم من تدخل القصر والإنجليز فى ذلك كما هو الحال فى حادثة ٤ فبراير الشهيرة فى مصر عام ١٩٤٢م. وكانت حقوق الإنسان موضوع تقدير وليس اتهامًا. بل ساهم فى صياغتها الوفد المصرى فى الأمم المتحدة. والآن جمعياتها مضطهدة ومطاردة وغير شرعية. مازال معظمها تحت التأسيس. وكان هناك نوع من التحضر والتمدن، نظافة الشوارع، وجمال الطرقات، واحترام القانون، والالتزام بواجب المواطن. لم تظهر فيه نعرات طائفية بل تجسدت وحدة الوطن فى ثورة ١٩١٩م. وازدهرت الفنون والآداب. وظهر عمالقة الشعر والغناء فى العصر الملكى الأول، أحمد شوقى، حافظ إبراهيم، أم كلثوم، عبد الوهاب، والمثّال محمود مختار. وتأسست الجامعة الوطنية، جامعة القاهرة، أهلية أولا فى مدرسة الحقوق عام ١٩٠٧ ثم حكومية ثانيا عام ١٩٢٥م. وقامت الجمعيات العلمية ومؤسسات المجتمع المدنى، الجمعية المصرية للاقتصاد والتشريع، دار الحكمة، الجمعية الجغرافية، الجمعية التاريخية، الجمعية الفلسفية، المجمع اللغوى، المجمع العلمى . . . إلخ. بل إن التخطيط أيضا لم يكن قصرا على ما بعد الثورة. فأنشئت الجسور، وشقت القنوات، وأقيمت السدود، وخططت المدن فى العهد الملكى وكما ظهر فى «مناهج الألباب» للطهطاوى وفى «الخطط التوفيقية» لعلى مبارك. وأقيمت الصناعات والشركات الكبرى بفضل الاقتصاد الوطنى الذى مثله طلعت حرب وبنك مصر.

فهل تمت دورة فى التاريخ، من الحداثة إلى ما قبل الحداثة، ومن الثورة إلى ما قبل الثورة، ومن الجمهورية إلى الملكية؟ وهل يتقدم التاريخ فى خط مستقيم طبقا لنظرية التقدم أم يعود التاريخ إلى الوراء طبقا لنظرية العود الأبدى؟

* * *

٢- وراثـــة مصـــر(*)

إن الصغير يرث الكبير كما يرث الأبناء الآباء. تلك سنة الحياة. بل إن الآباء يعملون من أجل وراثة الأبناء، ويعدون لهم كل وسائل الحياة والاستقرار للاطمئنان عليهم من قبل أن تأتى الآجال، وتتوالى الأجيال. والشعوب والحضارات كذلك. إذ يتصدر شعب لقيادة العالم، وتصبح حضارته نموذجا لحضارات البشر. هكذا كانت مصر القديمة والصين والهند وفارس وحضارات ما بين النهرين وكنعان ثم اليونان والحضارة العربية الإسلامية قبل أن تنتقل إلى الغرب الحديث، ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ومصر نموذج لذلك. فقد كانت حضارة رائدة فى العصور القديمة، مازالت أسرارها يتم اكتشافها يوما بعد يوم، فى السلم والحرب، فى البناء وفى الدفاع. دافع عنها أحمس ورمسيس. ونادى إخناتون فيها بالتوحيد. وحافظت عليه فى العصر القبطى بفضل آريوس، رئيس أساقفة الإسكندرية. وأعطى أنطونيوس العالم أصول الرهبنة والحياة الروحية. ومدرستها القديمة ومكتبتها كانت منارة للحكمة والعلوم.

ثم فتحها عمرو بن العاص. فالعرب أصهار المصريين، «جندها خير أجناد الأرض وشعبها مرابط إلى يوم القيامة». وقام فيها صلاح الدين. ومنها بدأ الدفاع عن العالم الإسلامى ضد الصليبيين القادمين من الغرب حتى حرر القدس. ومنها قام الظاهر بيبرس للدفاع عن العالم الإسلامى ضد التتار القادمين من الشرق وهزيمتهم فى عين جالوت قبل أن تسقط دمشق بعد أن سقطت بغداد.

وأعاد محمد على بناء مصر الحديثة كى تنافس الغرب فى التقدم والعلم والقوة العسكرية، ولإحياء الخلافة العثمانية التى تكالبت عليها قوى الاستعمار فى الغرب

(*) جريدة الاتحاد: ٣ يوليو ٢٠٠٤م.

والشرق للقضاء عليها. فتكالب عليه الغرب لهزيمته والقضاء عليه حتى يستمر الغرب فى تقطيع أوصال الرجل المريض، والتهامه قطعة وراء أخرى. ثم عاد عبد الناصر مرة ثانية لإعادة بناء مصر، وتحريرها من الاستعمار، والقضاء على التخلف، وجعلها بؤرة لتحرير العرب وتوحيدهم. بل وامتد ذلك إلى أفريقيا وآسيا وباقى شعوب العالم الثالث منذ باندونج حتى بلجراد. وتكالبت عليه القوى الغربية من جديد بسياسة الأحلاف، حلف بغداد، والحلف الإسلامى بين الرياض وطهران، وبالعدوان المباشر كما حدث فى العدوان الثلاثى فى ١٩٥٦، ثم فى العدوان الصهيونى فى ١٩٦٧ لإنهاء دور مصر من جديد بوصفها رائدة لحركة التحرر العربى والنهضة العربية. ونهضت مصر من جديد بحرب الاستنزاف فى ١٩٦٨-١٩٦٩، ثم بحرب أكتوبر ١٩٧٣ استردادا لكرامتها، واستعادة لسيناء، ودفاعا عن كرامة العرب بإزالة آثار العدوان، والانسحاب من الأراضى العربية المحتلة، والعودة إلى حدود ١٩٦٧م.

ثم وقعت مصر جريحة مثقلة بالجراح منذ أن انقلبت الثورة على نفسها من داخلها وبنفس الرجال بإعلان أن حرب أكتوبر ١٩٧٣ آخر الحروب ومازالت الأراضى العربية محتلة بما فى ذلك معظم سيناء، وأن أمريكا بيدها ٩٩ ٪ من أوراق اللعبة فى الصراع العربى الإسرائيلى. وغيرت الحليف من الشرق إلى الغرب، ومن الاتحاد السوفييتى والمعسكر الاشتراكى إلى الولايات المتحدة والمعسكر الرأسمالى. وأصدرت قوانين الاستثمار فى ١٩٧٥ لتحول الخيار الاشتراكى إلى الخيار الرأسمالى. وبعد مظاهرات يناير ١٩٧٧، ورفع صورة عبد الناصر فوق رءوس الملايين من الإسكندرية إلى أسوان، تمت زيارة القدس فى نوفمبر من العام نفسه لإيجاد أحلاف خارجية للنظام، إسرائيل بعد أمريكا. ثم عقدت كامب ديفيد فى ١٩٧٨، ثم معاهدة السلام فى ١٩٧٩م. وخرجت مصر من المعركة بصلحها المنفرد لاسترداد سيناء منزوعة السلاح، ومازالت الجولان والضفة الغربية والقدس محتلة. وقامت انتفاضة الحجارة الأولى ثم انتفاضة الأقصى الثانية بالسلاح ومصر تشجب وتندد وتعمل للسلام، الخيار الاستراتيجى لها وللعرب. وسكان الخيام والمشردون الجدد يرفعون صور عبد الناصر وينادون عليه «وا ناصراه» كما نادت المرأة العربية التى انتهك عرضها جند الروم «وا معتصماه».

ونجحت محاولات تهميش مصر الجريحة. وكان ذلك أمل الكيان الصهيونى القديم والإمبراطورية الأمريكية الجديدة. وكان الطيار الإسرائيلى الأسير فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ يفوق من إغماءته ويسأل: «هل الحرب مازالت مستمرة؟». وعندما يقال له «نعم» يغشى عليه من جديد ثم يفيق ويسأل: «وهل مصر مازالت تحارب؟». فيقال له «نعم» فيغمى عليه ثانية ولا يفيق. نقصها الخيال السياسى فى الجمهورية الثالثة بعد اغتيال رئيس الجمهورية الثانية. وتربت لدى قادتها عقدة ١٩٦٧، واحتمال الهزيمة مرة ثانية لو تجرأت على مساندة العرب، ونصرة الانتفاضة، والدخول فى معركة ثانية، وظروف العالم قد تغيرت. فلم يعد الاتحاد السوفييتى ولا المعسكر الاشتراكى قائما بعد أن انتهى عصر الاستقطاب. فمن يمد مصر بالسلاح إن هى دخلت الحرب؟ فليس المهم دخول الحرب بل الاستمرار فيها. وليس المهم البداية بالحرب بل الانتصار فيها حتى لا يضيع انتصار أكتوبر ١٩٧٣م. وازدادت تبعية مصر للخارج، وأرادت أن تقوم بدور الكيان الصهيونى كصديق لأمريكا أو حليف، وتماثلها فى المعونات. وازداد الفساد فى الداخل، وغابت التعددية السياسية، وانهارت الخدمات، ونظم التعليم، وزاد معدل البطالة والفقر. وأصبح النظام محاصرا بين المطرقة والسندان، مطرقة التبعية للخارج وسندان الهبّات الشعبية فى الداخل.

وفى هذه اللحظة التاريخية، ومصر فيها مشخنة بالجراح يريد جناحاها الشرقى والغربى فى الخليج الهادر والمحيط الثائر ورائتها، وهى لم تحتضر بعد. يلعبون دورها فى قيادة الوطن العربى فى النظام العالمى الجديد ذى القطب الواحد، وكأن الجناح يستطيع القيام بدور القلب.

بدأ الجناح الشرقى ممثلا فى أصغر دولة فيه. وأصبح صوتها أعلى صوتا من خلال سياساتها، واقتراحاتها، ومزايداتها، وإعلامها، وقنواتها الفضائية التى تستقطب المفكرين العرب. وتطرح القضايا العربية والموضوعات الأكثر حساسية دون التعرض لأوضاعها الداخلية. فجناح مصر الشرقى جاهز سياسيا وإعلاميا ليملأ الفراغ الذى تركته مصر الجريحة. بل إن البعض فيه لا يتوارى عن مؤازرة العدوان على الشعوب العربية، وتكرار مأساة العراق، واستدعاء القوات الأجنبية لضرب دول الجوار، والسماح بإنشاء قواعد عسكرية وقياداتها داخلها للتخلص من الأنظمة العربية الشمولية

باسم تحرير الشعوب، والتخلص من أنظمة القهر والطغيان. فالأساطيل الأمريكية رابضة فى المياه تحت رهن الإشارة بالعدوان القادم على أى قطر عربى مازال عصيا على دخول بيت الطاعة.

وقد تفضل وريثة أخرى فى الجناح الشرقى البداية بالدخول فى عصر العولمة، واقتصاديات السوق، ومهرجانات التسويق. فالعصر عصر المال والتجارة والربح، وإلغاء الحواجز الجمركية والدول الوطنية. العالم قرية واحدة، تحكمها البورصة، وأسواق النقد العالمى. والتجارة شطارة. والعرب تجار. وصوّر الوحى علاقة الإنسان بالله فى صورة تجارة لن تبور: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠]. وبمجرد انتهاء الصلاة تبدأ التجارة كما يفعل الباعة المتجولون على أبواب المساجد بعد صلاة الجمعة والعيدين. ورأس المال لا وطن له. ورجال الأعمال جاهزون بأدوات الاتصال الحديثة لعقد الصفقات بالشفرات. والجناح الشرقى لمصر وسط بين الشرق والغرب، طريق تجارى. لديه النفط والمال، وتنقصه العمالة والعقول. تأتى العمالة من آسيا والعقول من أوروبا. ولم يبق إلا الوسيط الدولى، إسرائيل، التى تعطى فوائد أكثر على رءوس الأموال، وتساعد على فتح أسواق الغرب، وتكون قناة اتصال بين الجناح الشرقى عبر قلب جديد، إسرائيل، يرث القلب القديم، مصر الجريحة. بل إن الجناح الشرقى هو الذى يطعم القلب عن طريق العمالة المصرية فيه. وهو الذى يمدها برءوس الأموال للتنمية من أجل توفير الغذاء والإسكان وإشباع الحاجات الأساسية للشقيق الأكبر الذى يتكاثر بأكثر من مليون وربع نسمة فى العام، ويقيم أوده ضد الجوع والعراء.

والجناح الغربى للقلب الأسير أيضا مستعد لوراثة مصر. فهو قريب جغرافيا من أوروبا، بعيدا عن الشرق الأوسط ومشكلاته. وكلاهما يمثل شاطئى البحر الأبيض المتوسط، شماله وجنوبه. بل يسميه الغرب «الغرب الإسلامى» فى مقابل «الشرق الإسلامى»، أو «المغرب» فى مقابل «المشرق» ليقضى على وحدة الوطن العربى الممتد الأطراف من المحيط إلى الخليج. وبين المغرب الأقصى وإسبانيا مضيق جبل طارق، بضعة كيلومترات، عبره طارق بن زياد لفتح الأندلس، ويعبر به المغاربة الآن هربًا من أوطانهم إلى أوروبا، بحثا عن الخبز والحرية. وعبر تونس وصقلية أيضا مجرد ساعة

من ركوب البحر. ومالطة عربية غربية، وقبرص تركية يونانية، ومارسيليا جزائرية فرنسية. الفرانكفونية تجمع بين فرنسا ودول المغرب. والملكية دستورية مستنيرة تقوم على التعددية الحزبية، وتداول السلطة بين الأحزاب السياسية، مرة فى الحكم ومرة فى المعارضة. وقد ساهمت فى صنع كامب ديفيد. واليهود المغاربة حلقة اتصال بين المغرب وإسرائيل. وتتميز بعقلية برهانية، فى حين يغلب على المشرق البيان والعرفان. والجزائر أطلق عليه حينا «الجزائر الفرنسية». والفرنسية فيه مازالت قائمة لغة للتخاطب فى الحياة اليومية بالرغم من التعريب. وأدخلت مئات الكلمات الفرنسية المعربة إلى اللغة العربية. وهو أول من أعلن احتمال تأجيل مؤتمر القمة العربى الأخير قبل أن ينعقد فى تونس. وحضر مؤتمر الثمانية فى جوريا. ولا يرى مانعا من مشروع الشرق الأوسط الكبير، وبرنامج الإصلاح. واستطاع القضاء على الحركات الأصولية فيه التى تقلق الغرب، وتهدده فى أمنه. وتونس موطن السياحة الفرنسية والأجنبية بجمالها الطبيعى الساحلى، وعمارتها الإسلامية، وثقافتها الفرنسية. وقد استطاعت أيضا القضاء على الحركات الإسلامية فيها، العنيفة والسلمية على حد سواء. وبرنامجها فى الإصلاح هو جدول الأعمال الغربى الذى كان وراء تأجيل مؤتمر القمة العربى: حقوق الإنسان، حقوق المرأة، حقوق الأقليات، المجتمع المدنى. وكان زعيمها الراحل أول من دعا فى الستينيات فى قمة الوعى العربى بالاعتراف بالكيان الصهيونى فى خطاب أريحا الشهير. أما ليبيا فلم تعد تصدر العنف أو تتعامل معه. وسلمت أسلحتها النووية. وتعلن عن الانفتاح الاقتصادى. وتنسحب من مؤتمر القمة. وتعترف بإسراطين. فكما أن الجناح الشرقى لمصر مستعد لوراثتها فكذلك جناحها الغربى على أتم استعداد. ولا ضرورة لبيان دمشق للدفاع عن الخليج ولا للاتحاد المغاربى العربى فالاتحاد الأفريقى أولى. وماذا فعل العرب لليبيا فى أثناء سنوات الحصار؟

ومع ذلك فمن الجناح الشرقى مازال من يحفظ الجميل، ويفرق بين ما هو ثابت، عروبة الخليج، وما هو متحول، قلب مصر الكسير. فمازالت مصر مركز جذب له. تمنعه من الوقوع فى مراكز جذب أخرى فى آسيا أو فى أوروبا. بل إنها دخلت الحرب ضد العراق مع قوات التحالف الأولى لتحرير الكويت. ومازالت تفضل الدفاع عن جزر الإمارات فى مدخل الخليج على إعادة العلاقات مع إيران.

ومازال فى المغرب العربى من يتذكر وقوف مصر معه فى أثناء حرب الاستقلال، وتأسيس علال الفاسى «مكتب القاهرة» للدفاع عن استقلال المغرب وتونس. ومازال البعض يتذكر تسليح المقاومة الوطنية فى الجزائر والذى كلف مصر العدوان الثلاثى عليها فى ١٩٥٦، ودورها فى الحفاظ على عروبته، وإعادة تعريبه بعد الاستقلال. ومازالت زيارة عبد الناصر لليبيا والجزائر تمثل أريجًا للتاريخ. ومازالت مدن المغرب الأقصى هى القادرة على حشد الملايين فى شوارع مدنها دفاعا عن الحق العربى فى فلسطين والعراق «لقد تمغرب المشرق، وتمشرق المغرب» تأكيدا لوحدة جناحى الوطن العربى.

ومن قال إن مصر المكسورة الجناح قد ماتت أو حتى قد وصلت إلى لحظة الاحتضار؟ فمازال شعبها يقاوم التطبيع، ومؤسسات المجتمع المدنى وأحزاب المعارضة فيها تعمل لاستعادة العافية. ومازالت مؤسساتها وجيشها وقضاؤها يمثل عنصر الاستمرار فى الدولة الوطنية. ومازال مجموع المثقفين والعمال والفلاحين يذكرون مصر بدورها فى الحفاظ على كرامتها وكرامة العرب فى الخمسينيات والستينيات. فالناصرية مازالت حية فى القلوب «ارفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الاستعباد». ومازال الشام رأس الطائر الذى يريد الكيان الصهيونى قطعه. ومازالت ساقاه فى السودان الذى يريد الاستعمار الأمريكى الجديد شلهما. مازال الطائر قادرا على التحليق والوثوب بجناحيه الشرقى والغربى وبرأسه فى الشمال وقدميه فى الجنوب لأن قلب الطائر مازال ينبض ولم يتوقف بعد ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨]. وكتاب مصر لم يحن بعد منذ آلاف السنين.

* * *

٣ ـ مصر أم الجميع(*)

من وسائل الاختراق الثقافى لمصر بالإضافة إلى ترويج بعض الفئات من الطبقة العليا والطبقة الوسطى إلى العولمة والليبرالية والواقعية السياسية: ما انتشر فى الآونة الأخيرة خلال بعض القنوات الفضائية الذائعة الصيت من تكوين جماعة فى مصر باسم «مصر أمنا»، وفى طريقها إلى التحول إلى حزب جديد، شعاره «مصر أولا»، تؤصل مصر الفرعونية، وتعزلها عن وطنها العربى وعالمها الإسلامى. وهى دعوة قديمة جديدة روج لها بعض أقباط مصر من المنبهرين بالغرب والرافضين للعروبة باسم حضارة مصر وبداوة العرب، وقدم مصر وحداثة العرب. وربما يكون السبب أيضا هو أن العروبة جسر للإسلام، ومصر فى بؤرته، بإسهاماتها فى الحفاظ على اللغة والثقافة العربية، وبما لديها من حضور إسلامى من خلال جامعاتها ومعاهدها الإسلامية فى أرجاء العالم الإسلامى كافة.

مع أن نصارى الشام منذ الفتح العربى كان ولاؤهم للعرب، الفاتحين الجدد. وقاموا بأكبر حركة ترجمة من اليونانية أو السريانية للتراث اليونانى، وبخاصة الأرسطى إلى اللغة العربية. وعينهم المأمون فى ديوان الحكمة للقيام بهذا الدور باسم الدولة. واستأنف نفس الدور نصارى الشام المحدثون فى القرن التاسع عشر، وترجمة أمهات الكتب العلمية والفكرية والأدبية من الغرب الحديث إلى العربية مساهمة فى عملية النهضة والإصلاح.

وتظهر أمثال هذه الدعوات للاختراق الثقافى فى وقت يظن البعض فيه أن مصر توقفت عن السير، وأن الرؤية قد غامت أمامها. فلا هى وطنية تدافع عن مصلحة الوطن. ولا هى عربية تقف مع إخوتها العرب فى محنهم فى فلسطين والعراق. ولا

(*) جريدة الاتحاد: ١٧ يوليو ٢٠٠٤، جريدة الزمان: ١٢ يوليو ٢٠٠٤م.

هى إسلامية تعطى الحركة الإسلامية شرعيتها فى الداخل أسوة بباقى التيارات الفكرية والسياسية الناصرية والليبرالية. وغفوة مصر لا تعنى ضعفها أو انحرافها أو تخليها عن رسالتها. إنما هى غفوة الذئب بعين واحدة، والهدوء الذى يسبق العاصفة.

وهى دعوة تظهر مع دعوات شبيهة داخل مصر منذ السبعينيات لإعطاء شرعية للتخلى عن الالتزام القومى، وعقد صلح منفرد مع الكيان الصهيونى كما حدث فى ١٩٧٩، مع التحول من الشرق إلى الغرب، ومن الاشتراكية إلى الرأسمالية. ثم ظهرت دعوات شبيهة ما دامت الشقيقة الكبرى قد بدأت مثل «الأردن أولاً»، «الكويت أولا» على نحو علنى. وقد تتم ممارسة الشعار على نحو عملى دون الإعلان عنه. ففويت القطرية، وتفتت العرب، وغابت عنهم الإرادة الجماعية والمصلحة المشتركة كما ظهر فى مؤتمر القمة العربى الأخير فى تونس.

وهى الدعوة التى أطلقها دعاة العزلة فى الداخل فى مقابل الانفتاح على الخارج بدعوى جلب الرخاء، والربط بينه وبين السلام. فقد أنفقت مصر فى أربعة حروب أو أكثر الكثير من دخلها القومى. وأصبح دخل مصر السنوى للفرد أقل عشرات بل مئات المرات من نظرائه العرب. وأصبحت الخدمات العامة فى مصر من شبكات للطرق والمواصلات والمياه والكهرباء والصرف الصحى والتعليم والعلاج بل والطعام والقوت اليومى أقل بكثير من الأقطار العربية الأخرى فى المشرق والمغرب.

كان هدف الاستعمار والصهيونية إرجاع مصر إلى داخل حدودها الطبيعية بعد أن حملت لواء حركة التحرر العربى فى الخمسينيات والستينيات، وأصبح للقومية العربية صداها فى كل مكان، تمثل إحدى حركات التحرر الوطنى فى العالم الثالث منذ باندونج حتى بلجراد. وتحولت إلى سياسات فى الداخل والخارج، اشتراكية فى الداخل وعدم الانحياز فى الخارج. وفى الهجمة الثانية للاستعمار منذ الصلح المنفرد مع الكيان الصهيونى فى ١٩٧٩، من أجل قيام إسرائيل الكبرى ومنذ العدوان على أفغانستان والعراق من أجل قيام الإمبراطورية الأمريكية الجديدة تتم محاولات تهميش مصر، وإخراجها من قلب الوطن العربى حتى يتم تقطيع أوصاله وابتلاعه قطعة قطعة كما تم تقطيع أوصال الإمبراطورية العثمانية، الرجل المريض من قبل، وابتلاع أوصالها من الدول الاستعمارية الكبرى وفى مقدمتها إنجلترا وفرنسا. وكما حدث لفرنسا بعد هزيمة نابوليون فى واترلو بالعودة إلى حدودها الطبيعية، والتخلى عن تثوير أوروبا، كذلك تعود مصر إلى حدودها الطبيعية بعد هزيمة عبد الناصر فى ١٩٦٧.

وهو تصور عنصرى شوفينى للعلاقات بين الشعوب وبالأخص دول الجوار. ويقترب من التصور النازى. فلا فرق بين «مصر فوق الجميع» و «ألمانيا فوق الجميع». فمصر جزء من الأمة العربية بفعل التاريخ والنسب، والحاضر والجوار، والمستقبل والمصالح العامة. ويخلط هذا التصور بين العرب والأعراب أى البدو. فالعرب صناع حضارة بفضل الرسالة التى حملوها. أما الأعراب فهم البدو الرحل الذين ينقد القرآن أخلاقهم وسلوكهم ونفاقهم ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]. ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ [التوبة: ٩٧]. كما يخلط بين التاريخ والسياسة. ويروج لما قاله المستشرقون عن الفتح العربى، ووصفه بأنه الغزو العربى. والاحتلال العربى لمصر والمغرب العربى، وفارس والهند وأواسط آسيا مثل احتلال الأتراك للعرب لوصف دولة الخلافة. ويخلط بين العلم والوطن. وينتقى من التاريخ ما يؤيد روح العزلة والتفوق العنصرى، وما يتعارض مع المصالح الوطنية لمصر والأمة العربية.

إن مصر دولة بلا حدود جغرافية، تجمع سكانى مفتوح. يفيض على محيطه أو يفيض محيطه عليه. مصر دولة مفتوحة من الشرق تربطها بالشام صحراء سيناء. وكانت الغزوات تأتى إلى مصر من الشرق منذ الهكسوس والفرس والتتار لولا إيقاف مصر لهم فى الشام فى «عين جالوت». سيناء المدخل الشرقى لمصر. وكان أحد الأهداف من خلق إسرائيل هو الفصل بين مصر والشام منذ الاحتلال البريطانى.

ومصر دولة مفتوحة من الجنوب. يربطهما معا شريان الحياة، نهر النيل. فى الجنوب منابعه وسدوده وخزاناته. وكان تأمين منابع النيل جزءًا من الأمن القومى لمصر. واتفاقيات توزيع مياهه جزء منه. وكان أحد أهداف فصل جنوب السودان عن الشمال هو السيطرة على منابع النيل، وتهديد الأمن القومى المصرى. وتلعب إسرائيل فى المنطقة. وتقترح على دول حوض النيل فى الجنوب بناء السدود على منابعه، على النيل الأزرق فى الحبشة. ودمرت قوات الانفصال فى الجنوب قناة جونجلى لتقليل الفاقد من مياه النيل التى تفوق ثلاثة أرباع المياه التى تصب فى الشمال. واتجه محمد على إلى الجنوب لتأمين حدود مصر الجنوبية. واستولت بريطانيا على الشمال والجنوب للاستيلاء على حوض النيل كله.

ومصر دولة مفتوحة من الغرب. كان الحيثيون يغيرون عليها من امتداد الصحراء الغربية، من الجفاف إلى الرى، ومن الصحراء إلى وادى النيل منذ أيام الفراعنة. وما زالت نظم الحكم فى الغرب حتى العصر الحاضر طامعة فى مصر، فى مياهها وشعبها. وتعيد نفس الحجة «قيادة بلا شعب لشعب بلا قيادة». وهى الحجة التى اعتمد عليها الغزو الصهيونى لفلسطين «شعب بلا أرض لأرض بلا شعب». كما أتى الفاطميون من الغرب لإعادة فتح مصر، وتأسيس الدولة الفاطمية. وما زالت مصر عضوا مراقبا فى «الاتحاد المغاربى»، وليست جزءاً من المغرب العربى الذى يمتد من المغرب الأقصى ويتوقف فى ليبيا.

ومصر دولة مفتوحة من الشمال من البحر. أتتها الغزوات الصليبية ثم الحملات الاستعمارية الحديثة من البحر. وفتحها الأتراك العثمانيون أيضا من البحر. لذلك كانت مهمة محمد على الدفاع عن مصر من البحر، وتكوين الأسطول المصرى لحماية سواحلها. وكان الاستعمار يهدف للقضاء عليه، بداية بتدمير الأسطول المصرى فى موقعة نوارين البحرية. وربما كانت دعوة المتوسطية وحسبان مصر جزءاً من الثقافة الغربية تأمينا لحدود مصر الشمالية ثقافيا، وحسبان شمال البحر الأبيض وجنوبه كيانا ثقافيا واحدا.

وتقوم إسرائيل الآن بهذا الدور. فالكيان الصهيونى أيضا بلا حدود من حيث البر والبحر. حدودها هو ما يستطيع أن يصل إليه جيش الدفاع الإسرائيلى وذراعه الطويلة حتى باكستان، مرورا بالأردن وسوريا والعراق لدفع الفلسطينيين إلى الأردن وتكوين الدولة الفلسطينية هناك عن طريق «الترانسفير»، ولتدمير سوريا التى مازالت تقاوم الوجود الصهيونى فى الشام، وتدمير العراق وقوته العسكرية كما دمرت المفاعل النووى العراقى. وتقضى على القنبلة النووية «الإسلامية» لدى باكستان. وهو كيان منفتح نحو الشمال بتحالفه مع تركيا ضد عدو مشترك هم العرب الذين ما زالوا ينازعون الأتراك فى لواء الإسكندرونة الذى تريد سوريا استرداده، وتقوى الأحزاب الكردية التركية الانفصالية كما يريد الفلسطينيون استرداد فلسطين من الاحتلال الصهيونى. وحدود إسرائيل أيضا مفتوحة مع الجنوب بعقد معاهدة السلام بينها وبين مصر. وأتى الإسرائيليون سيّاحا لرؤية أهرام مصر ومعابد الأقصر ووادى الملوك.

يعودون إلى أرض الفراعنة التى أخرجهم موسى منها. ويرون الأهرام التى شارك العبرانيون فى بنائها! وهى مفتوحة من الغرب بحرا. علاقتها بالغرب متينة عن طريق يهود أوروبا، والاشتراك فى العلم والحداثة والتقدم مع الغرب. بل إن حدودها مفتوحة عبر الأطلنطى إلى الولايات المتحدة الأمريكية، لا فرق بين يهود فلسطين ويهود نيويورك. حدود إسرائيل هى كل مكان يقطن فيه يهودى سواء فى «العاليا» أرض المعاد أو فى «الدياسبورا» أرض الشتات.

إن تاريخ مصر منذ قدم الزمان، مصر الفرعونية حتى مصر الحديثة، محمد على وعبد الناصر، يثبت أن مصر دولة مركزية، لها حدود مفتوحة من جهاتها الأربع. توحّد محيطها فى لحظات قوتها، وتنكمش على نفسها فتضعف الأطراف. لذلك تصورها الأفغانى رائد الحركة الإصلاحية بؤرة توحيد مع السودان فى وحدة وادى النيل، ومع الشام فى وحدة مصر والشام منذ صلا ح الدين حتى عبد الناصر، ووحدة المغرب العربى منذ الفاطميين، ووحدة العرب فى الحقبة الناصرية، ووحدة الأمة الإسلامية كما ينادى أنصار الجامعة الإسلامية، بل ووحدة شعوب الشرق عند أنصار الجامعة الشرقية، بين مصر والصين أو مصر واليابان، أو مصر وماليزيا وإندونيسيا، أو مصر وإيران، أو مصر وتركيا، أو مصر والجمهوريات الإسلامية فى أواسط آسيا. وبعد الثورة قامت مصر بذلك خير قيام منذ مؤتمر باندونج فى ١٩٥٥ حتى بلجراد فى ١٩٦٤، وتكوين كتلة عدم الانحياز، والقارات الثلاث، ومنظمة شعوب آسيا وأفريقيا، والعالم الثالث.

فى غياب مصر ينفرط العقد، وتتناثر حباته، وينقطع الخيط بعد ذبح الرقبة التى تزينها القلادة. فى غياب «مصر أم الجميع» لصالح «مصر أمنا» يتم استقطاب الوطن العربى، قطرا وراء قطر إلى مراكز جذب أخرى. يتم جذب الخليج نحو إيران، والسودان بعد قسمته إلى شمال عربى وجنوب أفريقى نحو الجنوب، وابتلاع الشام وقسمته بين تركيا وإسرائيل، وتفتيت العراق إلى أكراد وسنة وشيعة، وجذب المغرب العربى كله نحو أوروبا حيث يتم تبادل المنافع بين العمالة المهاجرة، والنفط المصدر من الجنوب إلى الشمال، واستثمار الشمال فى الجنوب. فقد انتهى الاستعمار القديم وبدأ الاستعمار الجديد. والجوار الجغرافى له الأولوية على التماهى الثقافى. وفى التاريخ تتغير الأحلاف وتتبدد المحاور.

لقد وقعت مآسى العرب بسبب غياب مصر بعد تكبيلها بمعاهدة السلام مع الكيان الصهيونى، حرب الخليج الأولى، وحرب الخليج الثانية، ثم احتلال كل فلسطين وكل العراق، وتسوية الحرب الأهلية فى السودان، واستمرار الحرب الأهلية فى الجزائر فى غيابها. هذا ليس تحميلا لمصر فوق ما تحتمل أو عودًا إلى الحلم القديم الذى لم نصح منه بعد. بل هذا هو قدرها لما تتمتع به من رصيد فى قلوب العرب ووجدان المسلمين عرضتها الأدبيات الحديثة عن «شخصية مصر» وعبقرية المكان. «جندها خير أجناد الأرض، وشعبها مرابط إلى يوم القيامة».

* * *

٤- هل تنهار الدولة الوطنية؟(*)

يبدو أننا فى عصر المراجعة، مراجعة كل شىء حتى المسلمات التى تربت عليها أجيال بأكملها مثل القومية العربية، ومناهضة الاستعمار والصهيونية، بل والاشتراكية، وإعادة توزيع الدخل القومى، والتصنيع، ومجانية التعليم، وتدعيم المواد الغذائية لمحدودى الدخل، والإصلاح الزراعى، والتخطيط، والتنمية المستقلة، وتحالف قوى الشعب العامل.

ومن ضمن المراجعات الدولة الوطنية المستقلة التى حاربت من أجلها حركات التحرر الوطنى وجبهات التحرير، وانتزعتها من براثن الاستعمار وقوى الهيمنة والتى أصبحت عبئا على الداخل والخارج على حد سواء. فهل يتم التخلص منها بالعدوان الخارجى؟ وهل تنهار بفعل قصورها الذاتى الداخلى؟

هناك ثلاثة مخاطر خارجية على الدولة الوطنية. الأول العولمة، وضرورة ذوبان الدولة الوطنية فى كيان أعم هو السوق. وتخضع لقوانين أعم هى قوانين السوق. فالعالم قرية واحدة، لا يتسع لعدة قرى صغيرة فيه. ومن ثم لزم تخلى الدولة عن إرادتها الوطنية، وإسقاط حواجزها الجمركية، وفتح أبوابها للاستيراد. فالتكتلات الصناعية الكبرى مثل الشركات المتعددة الجنسيات ومجموعة الدول الثمانية الأكثر تصنيعا فى العالم هى وحدها القادرة على التصدير. وعلى الدولة أن تدخل فى المنافسة مع غيرها وكأن الصغير يستطيع المنافسة مع الكبير، ويربح مثله. رأس المال العالمى، وبورصات الأوراق المالية، والبنوك الدولية، ومنظمة التجارة العالمية، واتفاقية الجات، هى البديل عن الدولة الوطنية التى هى مجرد جهاز استقبال لنظام العالم الجديد الذى يتجدد كل عدة عقود من الزمان طبقا لتغيير ميزان القوى فى العالم.

(*) جريدة الاتحاد: ٢٣ يوليو ٢٠٠٤، جريدة الزمان: ٢٠ يوليو ٢٠٠٤م.

والخطر الثانى العدوان الخارجى من الدول الكبرى على الدول الصغرى ومن أكبر دولة فى العالم، الولايات المتحدة الأمريكية، القطب الواحد بعد نهاية عصر الاستقطاب، على كل من يشق عصا الطاعة عليها مثل العدوان على أفغانستان ثم العراق ثم تهديد إيران وسوريا وليبيا والسودان. والذرائع موجودة: القضاء على الإرهاب، القضاء على أسلحة الدمار الشامل، القضاء على الأنظمة التسلطية، الدفاع عن حقوق الإنسان. بل إن القطب الثانى فى عصر الاستقطاب قام أيضا بالعدوان على الشيشان قاضيا على استقلالها مع اتفاق ضمنى مع القطب الأول على مقايضة الشيشان بالعراق وأفغانستان، واحدة باثنتين. فالقطب الثانى فى حاجة إلى القطب الأول فى المعونات الغذائية والاستثمارات والتجارة الخارجية. ويتم ذلك خارج الشرعية الدولية وخرقا لميثاق الأمم المتحدة، وضد إرادة شعوب العالم كله بما فى ذلك الدول المعتدية. فقد خرجت الملايين فى شوارع العواصم الأوروبية ضد العدوان على أفغانستان والعراق وفلسطين. والمصالح الكبرى هى التى تحرك الدول الكبرى، وليس المواثيق الدولية أو القيم الأخلاقية.

ويقوم الكيان الصهيونى بدور الدول العظمى. فيعتدى على الشعب الفلسطينى. ويبتلع فلسطين كلها، نصفها فى ١٩٤٨، والنصف الآخر بعد ١٩٦٧، وبتواطؤ القطب الأول ومساندته. فاليمين هو الحاكم فى الإمبراطوريتين. والعدو واحد. الإرهاب الدولى و«الإرهاب» الفلسطينى. فمازالت حركة التحرر الوطنى الفلسطينى هى الوحيدة التى تناضل من أجل إنشاء الدولة الوطنية بعد استقلال جنوب أفريقيا ونهاية النظام العنصرى منذ عام ١٩٤٨ الذى نشأ فيه الكيان الصهيونى.

والخطر الثالث أن مستقبل التكتلات الكبرى خارج العولمة هو التحول إلى فسيفساء عرقى طائفى باسم العرق أو الطائفة. فيتجزأ الوطن العربى إلى دويلات عرقية طائفية، عرب وبربر فى المغرب العربى، سنة وشيعة وأكراد فى العراق والخليج، مسلمون وأقباط فى مصر، سنة وشيعة وماروتيون فى لبنان، نجديون وحجازيون فى السعودية، زيدية وشوافع فى اليمن، عرب وأفارقة فى السودان وتشاد ومالى ونيجيريا، بدو وحضر فى الأردن. فالعولمة ليست ذات اتجاه واحد، توحيد المركز، مجموعة الثمانية، بل أيضا تجزئة الأطراف. وما وحّده الإسلام إنسانيا وثقافيا جزأه نظام العالم الجديد عرقيًا وطائفيًا.

وتهدد الدولة الوطنية كذلك ثلاثة مخاطر داخلية. الأول القهر فى الداخل. فقد تحولت الدولة الوطنية التى قامت بفضل حركات التحرر الوطنى إلى دولة قاهرة مستبدة. حكم القادة الوطنيون فى السابق باسم التحرر الوطنى بعد انقسامهم على أنفسهم، وتصفية أجنحتهم بعضها للبعض الآخر. هرب البعض إلى خارج البلاد. وكون البعض الآخر حركات سرية تحت الأرض. وأسس فريق ثالث أحزاب معارضة شرعية ضعيفة لا تستطيع المشاركة فى بناء الدولة إلا بموافقة الحزب الحاكم وكنوع من «الديكور» الديموقراطى وسط خضم من الانتخابات المزيفة، تحافظ عليها أجهزة الأمن وقوات الشرطة. قراراتها السياسية والتحولات الكبرى فيها مرهونة بإرادة الحاكم، الزعيم والمناضل والمجاهد والأخ والرئيس إلى آخر أسمائه التسعة والتسعين تشبها بأسماء الله. لا يترك السلطة إلا بموت أو انقلاب. هو رئيس مدى الحياة بلا تداول للسلطة. ويتم تعديل الدستور حتى يتفق مع هواه وعمره هو أو أبناؤه من بعده وربما أحفاده. وتتحول الدولة الوطنية إلى ملكيات وراثية، لا فرق بين جمهورية وملكية وجماهيرية ودولة وسلطنة. ونشأ عن هذا القهر لامبالاة الناس وإدارة ظهورهم للحكام. بل إن النكات قد توقفت إيجابا أم سلبا لأنهم لم يعودوا يثيرون الخيال السياسى الشعبى. وأصبح الشعب محايدا لامباليا بالنسبة لهم. وقد انعكس ذلك فى عدم تحرك الشعب أثناء لحظات الخطر. وتساءل العالم أين الشارع العربى؟ فى حين تقوم المظاهرات فى لندن وباريس وسياتل وجنوه وفلورنسا وبراج ضد العدوان الأمريكى على أفغانستان والعراق، والإسرائيلى على فلسطين، والروسى على الشيشان، لصالح العرب والمسلمين وهم لا يتحركون. وكانت معظم الهبات فى الشارع العربى من أجل الخبز وضد غلاء الأسعار ومظاهر الفساد فى مصر والمغرب وتونس والأردن، وليس من أجل الحرية.

والخطر الثانى التبعية للخارج. فبقدر ما يكون القهر والتسلط فى الداخل تكون التبعية والانسياق إلى الخارج حليفًا بديلاً. ولما كانت أكبر قوة فى الخارج هى الولايات المتحدة الأمريكية أصبحت التبعية لها. وتحولت الدولة الوطنية إلى دولة طيّعة، منفذة لسياستها، داخلة عضواً فى أحلافها حتى للعدوان على دول الجوار والأشقاء بدعوى رفع الظلم عن الشقيق الأصغر، والدفاع عنه ضد العدوان عليه من الشقيق الأكبر. وأصبح للخارج ممثلون فى الداخل ومحسوبون عليه. لا يجوز الاقتراب منهم بالنقد أو

المساس بهم فى السمعة أو الطعن فى سياساتهم واتجاهاتهم. ولما زاد عدد الأتباع تنافسوا فيما بينهم على الولاء للخارج والإخلاص له، أسوة بالكيان الصهيونى، وطمعا فى القيام بدوره فى خدمة المصالح الأمريكية، وتنفيذ مشروعات الإصلاح، الشرق الأوسط الكبير، البديل عن الوطن العربى الذى تجمعه العروبة، والعالم الإسلامى الذى يجمعه الإسلام والأخوة، والتعامل مع الخارج فرادى كدولة قطرية وليس كتجمع عربى إقليمى له مصالح مشتركة، وقوة تفاوض جماعية.

والخطر الثالث هو الفساد الداخلى نظرا لغياب الولاء الوطنى للحاكم وللمحكوم على السواء. فقد تحول الوطن إلى مجموعة من «الشلل» المتضاربة المصالح، كل منها يعمل لصالح أو لمصلحة من يمثله من التكتلات الكبرى. وهو فساد اقتصادى فى تهريب الأموال، ونواب القروض، والتلاعب بالأسعار، والاتجار فى العملات الأجنبية، والمضاربة فى العقارات، وتلقى الرشاوى والعمولات. وهو فساد إدارى فى جهاز الدولة بسبب القوانين التى لا ترعى مصالح الناس، وضرورة التحايل عليها بالرشوة لقضاء هذه المصالح فى حياتهم اليومية. وهو فساد إعلامى، فى سيطرة الدولة على أجهزة الإعلام، وتوظيفها أجهزة للتبشير لسياساتها وتحركات رئيسها وأسرته، رأس النظام. وهو فساد تعليمى، إذ يقوم التعليم على التلقين والخوف والطاعة من الحضانة إلى الجامعة لإعداد المواطن المطيع الذى لا يعترض على شىء. وهو فساد أخلاقى، فلم يعد أحد يلتزم بأى قيمة أو فضيلة، إلا بغريزة حب البقاء من أجل إشباع الحاجات الأساسية.

قد تكون بعض الدول الوطنية الحديثة نتيجة الإرث الاستعمارى. تكونت بعد تقطيع أوصال الإمبراطوريات الكبرى، فى الغرب مثل الإمبراطورية النمساوية، وفى الشرق مثل الدولة العثمانية. بينها حدود مصطنعة، ومشكلات حدودية مفتعلة من وضع الاستعمار حتى لا تتوحد من جديد. وتنشأ المنازعات الحدودية بينها لدرجة الحرب الأهلية مثل النزاع بين المغرب والجزائر على واحة تندوف، وبين مصر وليبيا على واحة جغبوب، ومصر والسودان على حلايب وشلاتين، واليمن والسعودية على عسير ونجران، والكويت والسعودية على منطقة تحت إشراف الأمم المتحدة، وسوريا وفلسطين على وادى الحمة، وسوريا ولبنان على مزارع شبعا. وقد تقع الحرب الأهلية بين الجارتين الشقيقتين كما وقعت بين ليبيا وتشاد.

ومع ذلك، وكما تفعل الرأسمالية للتأكيد على وحدة النظام الرأسمالى العالمى كذلك تفعل الأيديولوچيات الوحدوية عبر القطرية مثل القومية العربية التى تجعل ولاء العرب للوطن العربى وليس للقطر أو البلد العربى. الهم واحد فى فلسطين والعراق. والتهديد واحد على مصر والسعودية وسوريا. والصوت واحد فى الجامعة العربية، بيت العرب. وكذلك الأمة الإسلامية التى يكون الولاء فيها للعقيدة وللإخوة، لا فرق بين قوم وقوم، وشعب وشعب، ولغة ولغة. هى أمة واحدة عبر أفريقيا وآسيا، بل وتمتد إلى المسلمين فى أوروبا والأمريكتين. وتتجلى فى ظواهر العرب الأفغان، وجماعات الجهاد فى فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان والبوسنة والهرسك بل وتنظيمات العنف مثل تنظيم «القاعدة». وفى مواجهة تجمعات قوى الهيمنة تنشأ أيضا تجمعات قوى العنف المضاد.

أما الدول التاريخية ذات الكيانات المستقلة الضاربة الجذور فى الوعى القومى مثل مصر والمغرب والعراق واليمن والشام فإن الولاء يظل لها صامدا مهما عصفت به رياح التكتلات الكبرى. وتظل عصيّة على الذوبان فى نظام العالم الجديد. تعارض الهيمنة فى الخارج. فثقلها التاريخى ووزنها الحالى يحميها من التبعية الكاملة. ومع ذلك يبقى قهرها الداخلى عبر آلاف السنين منذ «شكاوى الفلاح الفصيح» من شيخ البلد بعد أن سلبه حماره وغلته. وهو ممثل فرعون الإله. التخلص من العدوان الخارجى أمر ممكن. أم التخلص من القهر الداخلى فهو التحدى الأكبر، «أنا وأخويا على ابن عمى، وأنا وابن عمى على الغريب».

* * *

٥ ـ المفتاح السحرى(*)

بين الحين والآخر تظهر فى حياتنا الثقافية والسياسية بعض المفاتيح السحرية فى صيغة شعارات تعطى الغريق طوق النجاة. وتقوم هذه الشعارات بالتنفيس عن آلام الناس وتعطيهم آمالا خادعة فى المستقبل. وبكثرة تكرار هذه المفاتيح السحرية ولا شيء يتغير سئمها الناس، ولم يعد أحد يصدقها. فصمت الآذان، وانقشع الخيال. وأصبح الذى يحرك الناس هو فعل فى الواقع، تغير ملموس، شيء يرونه بالفعل. فالواقع أصدق من الخيال، مقاومة بالفعل ضد قوات الاحتلال خير من عشرات الصور عن استقلال العراق ووحدة أراضيه، وشهيد بالفعل فى فلسطين خير من عشرات المبادرات لتحرير فلسطين، وحركة مرجعية فى النجف خير من النداءات للحفاظ على المقدسات.

ولذلك أسباب فى وجداننا السياسى والثقافى المعاصر. فبعد اختفاء الناصرية بعد عبد الناصر، حدث رد فعل نفسى ووجدانى على الحلم المجهض، والتجربة التى لم تتم. ففلسطين لم تتحرر بل احتلت بالكامل بعد ١٩٦٧م. وظهرت الطبقات الجديدة من العسكريين والبيروقراطيين. وتضخمت بتضخم جهاز الدولة. وظهرت الطبقة المتوسطة بدعوى الرأسمالية الوطنية من تجار الجملة والمقاولات وبزوغ القطاع الخاص. وتحطمت التجربة على أسنة الحرية فى الداخل واختلاف شعارات الثورة عن تطبيقاتها وممارستها، وعلى فوهة المدافع فى الخارج بالعدوان المتكرر عليها منذ العدوان على غزة فى ١٩٥٥، والعدوان الثلاثى فى ١٩٥٦، ثم العدوان الأخير فى ١٩٦٧ الذى أنهى التجربة الناصرية وأسقط ما تبقى من شعاراتها.

وتوالت الشعارات بوصفها مفاتيح سحرية رغبة فى الإنقاذ واستئناف التجربة ولو بالقول دون العمل، ومخدرًا دون إجراء أى عمليات جراحية لتصحيح مسار

(*) جريدة الاتحاد: ٤ سبتمبر ٢٠٠٤. جريدة الزمان ١ سبتمبر ٢٠٠٤م.

الأوطان. وحل الخيال محل الواقع، والوهم بدل الحلم. والناس فى حاجة إلى طوق نجاة ومفتاح سحرى فى ثقافة تؤمن بالمعجزات والحلول المفاجئة، ولدى شعوب قادرة على الصبر، وتَعُدُّه مفتاح الفرج. وفى كل مرة يساعد الشعار على عبور «عنق الزجاجة». فالفرج قريب، وأزمة و«تعدى» و«ربنا خلق كل إنسان ورزقه معاه»، و«السعيد من سعد فى بطن أمه، والشقى من شقى فى بطن أمه»، و«المتعوس متعوس ولو علّقوا على رأسه فانوس»!

بدأت المفاتيح السحرية منذ هزيمة عام ١٩٦٧م. أولها «العلم والتكنولوچيا» فقد كان أحد أسباب الهزيمة أننا لم نستعد علميا لها. «وانتظرناهم من الشرق فآتونا من الغرب» و«لا يغنى حذر من قدر» كما جاء فى خطاب الاستقالة للزعيم عبد الناصر ليلة ٨ يونيو عام ١٩٦٧م. لم نحسن رصد الطيران المنخفض، ولم نحم خطوطنا الخلفية، ولم نحسن الانسحاب المنظم من سيناء، وفرشنا القوات فى العراء دون غطاء جوى لأن القائد كان فى الجو، ولم نضع الطائرات فى حظائر ومطارات سرية طبقا للنكتة الشهيرة «محطة المطار السرى». وباختصار كما قال الشاعر:

«دخلنا الحرب بمنطق الناى والربابة التى ما قتلت ذبابة»

فكان من الطبيعى أن يوضع شعار «العلم والتكنولوچيا» بناء على التجربة المستفادة من أجل استرداد الأراضى المحتلة، والدفاع عن كرامة العرب، ورد الاعتبار لجيش مصر وسوريا.

وبعد الانتصار العسكرى فى أكتوبر عام ١٩٧٣م، وتحقيق بعض متطلبات الشعار على المستوى العسكرى بدأ التحول السياسى فى الرؤية العامة للدولة، من الاشتراكية إلى الرأسمالية، ومن التحالف مع الاتحاد السوفييتى إلى التحالف مع الولايات المتحدة، ومن القطاع العام إلى القطاع الخاص، ومن «ما يؤخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة» إلى «حرب أكتوبر آخر الحروب» و«السلام خيار استراتيچى». ولما بدأت الآثار الوخيمة لسياسة الانفتاح الاقتصادى فى الظهور، وبعد غلاء الأسعار فى يناير عام ١٩٧٧، قامت جماهير عبد الناصر تدافع عن حقوقها فى انتفاضة يناير عام ١٩٧٧م. فى نفس الشهر ونفس العام. وكان الخطأ فى رأى الدولة عدم التمهيد لذلك تدريجيا حتى يبتلع الشعب غلاء الأسعار سلعة سلعة، وخطوة خطوة. اتُّهم الناصريون

والماركسيون والشيوعيون والملحدون والموتورون بأنهم وراء انتفاضة «الحرامية» التى وزعت المواد التموينية على المواطنين فى الأحياء الفقيرة، ووزعت ممتلكات علب الليل فى شارع الهرم على الجموع الفقيرة دون تدمير مستشفى أو مدرسة. ونتيجة لذلك رُفع شعار «العلم والإيمان» وأن «ما لا إيمان له لا أمان له». وزاد التمسح بمظاهر الإيمان فى أجهزة الإعلام وفى ممارسات الدولة ورئيسها آنذاك مع التبشير بمجموعة جديدة من القيم «أخلاق القرية»، «كبير العائلة». فى الوقت الذى تصاغ فيه القوانين الاستثنائية مثل «قانون العيب». وتستمر الأحكام العرفية حتى مذبحة سبتمبر عام ١٩٨١م.

واستمرت المفاتيح السحرية للنهضة بالبلاد وتجنب وقوع الأخطاء. فبالنسبة للجيش «إلكترون فى يد كل جندى» إشارة إلى تحديث السلاح، وتنويع مصادره، ودعاية للعلم بطريقة الفلاح وكأن الإلكترون فأس فى يد المزارع أو بقرة يجرها العامل الزراعى. تحديث عن طريق التخلف، وصعود إلى القمر على طريقة «يامّه القمرع الباب». دخل الجامعيون الجيش، وتم تحديثه بجهد رجال الجيش وعلم الأكاديميات، وليس عن طريق الخيال الشعبى، والشعار السياسى، والمفتاح السحرى.

ونظرًا لتطلع الفقراء للمشاركة فى ثراء الأغنياء بعد سياسة الانفتاح، وتوفير العمالة فى القطاع الخاص بعد رفع الدولة أيديها عن توظيف الخريجين حتى تضخم جهاز الدولة بسبب البطالة المقنعة، وغياب العمال المهرة والفنيين، وتحولاً من أيام الحرمان واشتراكية الفقر فى الجمهورية الأولى ظهر شعار «عربة وڤيلا» لكل مواطن بوصفه مفتاحًا سحريًا جديدًا يدغدغ عواطف الناس ويلعب بأشواقهم، ويستثير حاجاتهم، ويشبع رغباتهم حتى على مستوى الصورة الفنية بعد أن أجهض الحلم الاشتراكى القومى فى الجمهورية الأولى. وزاد عدد العربات الفارهة، وعدد الفيلات والقصور فى المدن وعلى السواحل ولكن للأغنياء الجدد وليس لقدماء الفقراء، لمهربى الأموال ونواب القروض ولرجال الأعمال وللمضاربين على العقارات ومشترى القطاع العام وللمستثمرين بدعوى إيجاد فرص عمل جديدة وتوفير احتياجات المواطنين وسد النقص فى الصناعات الوطنية. والفقراء يزدادون فقرًا بقدر ما يزداد الأغنياء غنى. وظهرت التنبؤات: من لم يغتن فى هذا العصر فلن يغتنى أبدًا. من لم يسرق ولم ينهب ولم يختلس ولم يهرّب ولم يغش ولم يفسد فى هذا العصر فلن يحدث بعد ذلك أبدًا.

وجمع الحكم بين السلطة والثروة. إذا أراد التخلص من أحد سرّب إلى الإعلام ملف فساده. وإذا أراد الإبقاء على أحد أخفاه حتى يدين الجميع له بالطاعة والولاء. وتنتفخ الجيوب و«الكروش» فى زمن الحداثة والتحديث.

ولم تتوقف المفاتيح السحرية عن الدوران بالرغم من أنها لم تفتح بابا مغلقا واحدا. وكانت تدور فى فراغ دون أن يُفك مزلاج أو يُحل «ترباس». والآن يرفع شعار آخر، ويقدم مفتاح سحرى جديد «كمبيوتر لكل مواطن». فالقضية هى تحديث المعلومات، وطرق الاتصال، والتمكن من نظم المعلومات الحديثة من المهد إلى اللحد. اطلبوا العلم ولو عند ميكروسوفت وبيل جيتس والولايات المتحدة الأمريكية التى لم تُكتشف بعد فى عصر الرسول. وقد عرفناها نحن أكثر مما عرفنا الصين التى كان الرسول يعرفها! والكمبيوتر ينظم المعلومات ولا يعطى علما. ويقوم بدور الأرشيف القديم، ولكنه لا يدون وثيقة جديدة. ولا يزيد المواطن ذكاء بل يقل الاعتماد على عقله. ويظن أن الجهاز الذى أمامه به أسرار الكون، وفتح مغاليق الأمور. ونكون كالبدوى، العربة الفارهة أمامه ويعشق «الهجن»، والقصر الفاخر خلفه ويستظل بالخيمة فى «البر»، ويمتلك أحدث الأسلحة المستوردة من مخازن السلاح الأمريكية، ويرقص بالسيف. ويركب الدبابة والمصفحة ويقود الطائرة ويمتشق الخنجر. ويتعامل مع الإنترنت، ويحضر العالم كله أمامه ويمص القات بين فكيه وهو «يخزّن».

وكما قال الشاعر: «لبسنا قشرة الحضارة، والروح جاهلية».

وفى الوقت نفسه ومن أجل التغطية والتعمية والتستر على الفساد الاجتماعى والسياسى والاقتصادى يكثر الحديث عن «طهارة اليد» و«الشفافية» و«الانتماء». وتنشد الأغانى «يا حبيبتى يا مصر»، «أصله ماعداش على مصر»، «أوعى تقول أخذت إيه من مصر، بل قول أعطيت إيه لمصر»، تنويعا على ما قاله جون كنيدى، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية السابق الذى لم تتحمله قوى الفساد وجماعات الضغط فى وطنه. «ليست القضية ما أعطته أمريكا لك بل القضية هى ما أعطيته أنت لأمريكا». فالمفاتيح السحرية أيضًا ليست صناعة محلية بل تدخل ضمن المستورد والوافد. لذلك لا تفتح الأبواب الموصدة التى علاها التراب وغطى مزاليجها الصدأ.

وعلى فرض الاستمرار فى رفع هذه الشعارات، والتلويح بمفاتيح سحرية جديدة لا

تفتح شيئا فلماذا لا نجرب مفاتيح سحرية أخرى لعلها تصيب هذه المرة لتغير الواقع وتحرك المجتمع وتغير مسار التاريخ مثل «حرية لكل مواطن»، «عدل لكل مواطن»، «خبز لكل جائع»، «شربة ماء لكل عطش»، «سكن لكل قاطن فى العراء»، «لباس لكل عار»، «مدرسة لكل طفل»، «جامعة لكل طالب»، «عمل لكل عاطل»، «مواصلات لكل متنقل». تلك مآسى الوطن واحتياجات المواطنين ومعاناتهم فى الحياة اليومية. فالمواطن يعانى من القهر والفقر فى الداخل، لا حرية ولا خبز. ولماذا لا ترفع شعارات «كرامة لكل مواطن»، «استقلال وطنى لكل وطن»، «إرادة وطنية لكل شعب»، «تنمية مستقلة لكل مجتمع». فمأساة الوطن ليست فقط فى القهر والفقر فى الداخل بل أيضا فى التبعية وضياع الكرامة فى الخارج. فمن ليس معنا فهو ضدنا. ومن لم يدخل بيت الطاعة فمصيره مثل فلسطين والعراق وأفغانستان، وإيران وسوريا والسودان على قائمة الانتظار. والنظم السياسية محاصرة بين المطرقة والسندان، مطرقة الخارج، العولمة والعالم ذى القطب الواحد، وسندان الداخل، ضغط الشعوب واقتراب هباتها الوقتية أو ثوراتها الدائمة. وعلى فرض رفع هذه الشعارات والتلويح بهذه المفاتيح السحرية فإنها سرعان ما تنقضى مثل غيرها، وتصب فى دائرة النسيان إلى أن تقوم غيرها. ومفكرو السلطة وفقهاء السلطان وأيديولوچيو النظام لم تفرغ عقولهم ولا فتاويهم بعد.

قد لا يوجد مفتاح سحرى لأى شيء. فالسحر لا وجود له. هو جزء من بنية الخرافة التى مازالت تسيطر على الشعوب. إن للثورة شروطها، وللنهضة متطلباتها، وللإصلاح مقوماته، وللتغيير قواعده. وأولها القضاء على عقلية المفاتيح السحرية و«افتح يا سمسم» والإمساك بـ «على بابا والأربعين حرامى».

* * *

٦- أين الشارع العربى؟(*)

يتساءل الجميع، فى الداخل والخارج: أين الشارع العربى؟ ثلاثمائة وخمسون مليونا تصل إلى بليون فى غضون عشرين عاما قبل أن يرحل هذا الجيل. وهل تقوم الملايين فى العواصم والمدن الأوروبية عندما تتحرك الملايين فى جنوة وفلورنسا وسياتيل وبراج وباريس ولندن بدور الشارع العربى دفاعا عن قضايا العرب فى فلسطين والعراق وعن قضايا المسلمين فى أفغانستان والشيشان وكشمير؟

ينتفض الشارع العربى بين الحين والآخر من أجل الخبز. ومعظم الهبات الشعبية فى العقدين الأخيرين كانت من أجل الخبز فى المغرب والجزائر وتونس والأردن ومصر. والبعض منها من أجل الحرية أثناء الغزو الأمريكى الأول على العراق بسبب غزو الكويت وبعد الغزو الأمريكى الثانى على العراق لإسقاط النظام. وأخيرا تحركت جماهير الشيعة منذ ثورة النجف الأولى حتى ثورة النجف الثانية. ودخول آية الله السيستانى النجف مطالبا الملايين بالدخول وراءه حماية للعتبات المقدسة وحفاظا على المقاومة وزعامتها.

إذا ما تحرك الشارع العربى فإنه يشق طريقا ثالثا بين الحاكم والمحكوم لحقن الدماء سواء كان الحاكم المحتل الخارجى أو المتسلط الداخلى. فالملايين هى الأغلبية الصامتة التى يتلاعب بها الجميع، ويعيش على سكونها ولامبالاتها وغيابها عن الساحة. مع أنها هى الحل. وهى القوة الكامنة فى التاريخ. تعجز أشد أنواع الأسلحة الحديثة عن قهرها. يكفى الأجساد البشرية المتراصة التى يعجز حصدها. وهكذا قهر غاندى بملايين الهنود والمقاومة السلمية أقوى إمبراطورية فى العالم. كما استطاعت ملايين طهران حصار نظام الشاه. بل لقد فاقت جماهير مدن المغرب العربى المليون عربى.

(*) جريدة الاتحاد: ١٨ سبتمبر ٢٠٠٤، جريدة الزمان: ١٦ سبتمبر ٢٠٠٤م.

وخرجت المظاهرات أثناء العدوان الأخير على العراق فى مناطق عربية لم تحدث فيها أن تحركت الجماهير فيها قبل ذلك باللباس الوطنى. لقد تعود العالم على رؤية الحكام لطول فترة الحكم التى بلغت ثلاثة عقود من الزمان عند البعض. ولم يروا المحكومين. فكان تعامل الخارج مع الحكام دون المحكومين باستثناء أصغر دولة عربية وهى لبنان حيث المحكوم فيها هو الحاكم.

وقد قيل فى تفسير غياب الشارع العربى الكثير بين الثقافة الشعبية والثقافة السياسية. فقد ورث الشعب العربى ثقافة قدرية تدعو إلى أن الحل من الخارج، من القدر والزمان والدهر والتاريخ «لا تسبوا الله فإن الله هو الدهر». وقد قيل فى هزيمة يونيو- حزيران «لا يغنى حذر من قدر» وكأن الهزيمة قدر مكتوب على العرب. والغريب أن تكون الهزيمة مكتوبة والنصر غير مكتوب، وأن يكون الفقر مكتوبا والغنى غير مكتوب، وأن يكون الرزق محدداً من قبل فى السماء وليس مكتسبا فى الأرض، وأن السعادة والشقاء مقدران حتى قبل الولادة، «السعيد من سعد فى بطن أمه، والشقى من شقى فى بطن أمه»، وأن المتعوس لن يتغير حاله «المتعوس متعوس ولو علّقوا على رأسه فانوس». فكل شيء يحدث للعرب قسمة ونصيب.

وقد ولّدت القدرية فى الثقافة الشعبية قدرة على التحمل والصبر والانتظار لأن «الصبر مفتاح الفرج». وغنت المواويل الشعبية فضيلة الصبر. فلا علاج للصبر إلا بكثرة الصبر بعد عجز الأطباء عن مداواة المرض بالطب الحديث. وامتلأت الأغانى الشعبية من كبار المطربين بفضيلة الصبر على العذاب والهجران إلا القليل منها التى غنت «للصبر حدود». والقرآن نفسه يجعل الصبر فضيلة إذا كان استعدادا للمقاومة وتمهيدا للنصر. ومع ذلك يضع القرآن أيضا حدوداً للصبر، وضرورة الصراخ ﴿فما أصبرهم على النار﴾ [البقرة: ١٧٥].

ثم تأتى الثقافة السياسية فى نصف القرن الأخير منذ أن قام الضباط الأحرار بثوراتهم فى أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات، وحلوا الأحزاب الشعبية التى تكونت عبر التاريخ، واحتكروا العمل السياسى، وأقصوا الحركات الإسلامية حتى عم الفراغ السياسى، ووثقت الجماهير بالقادة الجدد فى صياغة المشروع العربى الجديد للاشتراكية والوحدة، وإن تأجلت قضية الحرية. فلما أجهض المشروع فى يونيو-

حزيران عام ١٩٦٧م، وانقلب إلى مشروع مضاد منذ وفاة عبد الناصر فى عام ١٩٧٠م، تعودت الجماهير على السلبية تجاه الدولة. وأصبح الدهر هو الدولة «لا تسبوا الله فإن الله هو الدولة» كما عبرت إحدى شخصيات نجيب محفوظ فى إحدى رواياته.

وبماذا ينفع التحرك الشعبى ولا يوجد تداول للسلطة سواء كان الحكم ملكيا أو جمهوريا، وإذا كانت نتيجة الانتخابات معروفة سلفا، نجاح الحزب الحاكم، وسيطرته على أغلب المقاعد، باستثناء معارضة هامشية لاستكمال الشكل الديموقراطى؟ أخذت معظم القرارات فى الحرب والسلام، والرأسمالية والاشتراكية كاختيار فردى للحاكم دون استشارة أحد. ولا يوجد إحساس عند المواطن أن صوته ذو أثر أو أن له قيمة فى تغيير مجرى الأحداث.

تعودت الجماهير على أن الحل فى يد الفرد، الحاكم المطلق، المخلِّص، الزعيم الذى اختاره القدر، المستبد العادل فى ثقافة شعبية موروثة فيها تظهر الأنبياء، وتقود الشعوب، وتعود الأئمة بعد غياب طويل. وتزخر بذلك حياة الأبطال فى السير الشعبية أبو زيد الهلالى، والزناتى خليفة، وعنتر، «ابن البلد عايزه ولد»، الفتوة بالنبوت فى حارة الحرافيش كما صور نجيب محفوظ.

قد يكون الحل فى الاعتماد على الخارج، والانخراط فى نظام العالم، والارتباط بالقوى الكبرى، والعيش على فتات الآخرين. فالعصر عصر عولمة، والعالم ذو القطب الواحد. وإعطاء الآخر أكثر مما يستحق، والذات أقل مما تستحق. تهويل قدرات الآخر، وتهوين قدرات الذات. والآخر نفسه ليس له صديق دائم إلا بقدر المنفعة. فإذا تغيرت المنافع، وتبدلت المصالح ترك الأخ الأكبر الإخوة الصغار. ويخسر الحاكم مرتين. الأولى عندما خسر شعبه إلى الأبد، بالاعتماد على الخارج دون الداخل. والثانية عندما خسر الحليف الجديد البديل عن التحالف مع الشعب. ومن ثم يصبح الحاكم بلا دعامة فى الداخل ولا دعم فى الخارج. ويكفى أقل قدر من هبة ريح كى يسقط كما تسقط ورقة الخريف، وكما حدث للجنرال ديم فى فيتنام قبل سقوط النظام وانتصار حركة التحرر الوطنى بقيادة هوشى منه والجنرال جياب. وأمريكا وإسرائيل هما القوتان العظميان. تتعلق بهما النظم القاهرة فى الداخل لتصبح تابعة

للخارج، ومحاصرة بين المطرقة والسندان. وكلاهما مر. هما القوتان الظاهرتان لتكوين الإمبراطورية الأمريكية، وإسرائيل الكبرى. وأوروبا مترددة تحافظ على مصالحها. ولا تغامر بمعارضة جهورية للغرب الأمريكى. وروسيا مغروزة فى الشيشان. والشيشان من المسلمين. والمعارضة الشيشانية مع العرب الأفغان تقاوم الاحتلال. واليابان صاحبة مصلحة. والصين مازالت عملاقا قادما ترعى مصالحها أولا. والعالم الإسلامى مازال يترنح بين الحضور والغياب، وفى حالة بين اليقظة والنوم.

وقد يأتى الحل من تحت الأرض عندما تتمرد نخبة إسلامية أو ماركسية على الوضع ولا تقوى على الجهر به. فتكوّن حركات سرية وخلايا تحت الأرض، وتنشئ جهازاً عصبيا قادرا على تحريك الجسد المتعب والمنهك، جسد الشعب بلا حراك. ولما كانت عيون الأمن فى كل مكان فسرعان ما تفكك الخلايا. ويقدم النشطون إلى العدالة بتهمة الإعداد للانقلاب على الحكم واستعمال العنف المسلح والتخابر مع جهة أجنبية لتشويه صورتها أمام الشعب وترويع الناس.

ويتساءل الكثيرون: ما العمل لتحريك الشارع العربى وأخذ الجماهير زمام أمورها بأيديها؟ ومن أين البداية؟ وهو سؤال طالما طرحه القادة: ما العمل؟ وأجاب عنه المفكرون: «من هنا نبدأ»، ورد آخرون «من هنا نعلم».

هل ينتفض الحاكم مرة ويفك حصاره كما صرخ الشاعر «فكوا حصاركم»؟ هل يكون مثل المهلهل بن أبى ربيعة بعد قتل أخيه كليب «اليوم خمر وغداً أمر»؟ هل يكر مع عنترة على الأعداء وهو على صهوة جواده؟ هل تحدث لأحدهم إفاقة كرامة من كثرة الطعان؟ ولا يكفى فى ذلك استدعاء محمد مهاتير (محاضر) للتعلم منه والحكاية عن التجربة الماليزية والتصفيق له.

هل يتحرك رجال الدين الأحرار كما تحرك الأفغانى وعبد الله النديم ومعه رواد النهضة الأوائل؟ فمازالت منزلتهم فى أعين الناس كبيرة بالرغم من انتشار فقهاء السلطان. هل يعود الدين حركة تحرر عربية ثانية بعد أن تولدت عنه حركة التحرر العربى الأولى وبعد أن تم إقصاء الحركات الإسلامية بين الحركتين فى النصف الثانى من القرن العشرين؟ هل يعود قادة حركة التحرر العربى الأولى ليصححوا مسار التاريخ،

ويعيدوا تأسيس النهضة الأولى التى أرساها آباؤهم وأجدادهم؟ هل تتحرك الجامعات العربية؟ فمازال الطلاب والمثقفون هم فى الصف الأول فى النضال السياسى يحملون هموم الفكر والوطن، ويرث المفكرون الأحرار الضباط الأحرار، يستمرون فى مشروعهم القومى الاشتراكى، ويتجنبون أخطاء التسلط، ويحققون مطالب الحرية.

لقد طالب البعض بتحويل «جامعة الدول العربية» إلى «جامعة الشعوب العربية»، و«منظمة المؤتمر الإسلامى» إلى «منظمة الشعوب الإسلامية» حتى تخرج الجماهير عن وصايا الدول وتضارب الإرادات المتعارضة والمصالح المختلفة. وقد حاولت مؤتمرات الشعب العربى ذلك، سواء المؤتمر القومى أو المؤتمر القومى الإسلامى.

هل تقوم أحزاب المعارضة بهذا الدور على الصعيدين الوطنى والقومى؟ وقد تم من قبل تشكيل اتحاد الأحزاب التقدمية العربية. وهى أحزاب بلا جماهير، وبلا رؤية عن تحريك الجماهير. يكفيها شقة فى وسط المدينة، وصحيفة مكبلة بالديون، تطبع فى مطابع الدولة. وتتصور نفسها سلطة بديلة أو سلطة متعاونة. وهيكل حزبى يتصارع كباره على الفوز بمناصب القيادة فيه. يتحاورون فيما بينهم مع استبعاد إحدى القوى. تفكر بمنطق السلطة أكثر مما تعمل بوصفها قوى معارضة. وتستقطب السلطة أجنحة منها وتشركها معها فى مجالسها استئناسا لها.

بعض المنظمات الأهلية مازالت قادرة على تحريك نسبى للشارع العربى. تعلى صوت المعارضة والاحتجاج فى الخارج أكثر من الداخل تنشيطا للمجتمع المدنى. جماهيرها من المثقفين النشطين سياسيا. وهى قادرة على تحريك الآلاف دون الملايين من الفلاحين والعمال التى مازالت تكوّن ثلاثة أرباع الجماهير العربية. وبقدر وجود القيادات الطلابية تغيب القيادات الفلاحية والعمالية حتى بعد أن أصبحت الحقول والمصانع لهم بعد الإصلاح الزراعى على الفلاحين المعدمين ومشاركة العمال فى الأرباح.

لم تبق إلا الأمهات والأطفال، الأمهات التى زاد عبء الإعالة عليها، والأطفال الذين يموتون بالآلاف فى العراق ودارفور. لم يبق إلا الجسد العربى بلحمه ودمه أن ينزل إلى الشارع معبرا عن حجم الخسائر على العرض والأرض. فالعرب أقوياء بملايين البشر قبل ملايين الثروة، بالجسد العربى وإن ضعفت الروح وقل الخيال.

يبقى الحدث الكبير، الزلزال القادم بعد تضييق الخناق على سوريا مرة لوجودها فى لبنان ومساندتها حزب الله، ومرة لمساعدتها المقاومة الفلسطينية ثم العراقية، ومرة لملف حقوق الإنسان. فتصبح سوريا هدفا للعدوان مثل العراق. وسوريا هى رئة الجسد العربى ومصر هى الرئة الثانية. ويلتف الحبل أيضا على السودان، أولا لمعسكرات تدريب «الإرهاب»، وثانيا للحرب فى الجنوب، وثالثا فى دارفور. والقرارات الدولية تلف الحبل كل يوم تمهيدا للعدوان الأمريكى والمساندة الأوروبية، مع أن العدوان على العراق لم يكن بحاجة إلى قرار دولى.

قد يُجاب عن قريب عن سؤال: أين الشارع العربى؟ فقد تعبت النظم السياسية وأصبحت عبئا على الشعب العربى. وقد تصبح عبئا على الحليف الأجنبى عن قريب. قد تحدث هبة عامة فى مدن العراق بعد أن بلغ الشهداء من المدنيين بالمئات كل يوم. وقد تعم الشهادة من الشهيد فى فلسطين والعراق إلى الرغبة فى الشهادة عند جموع الشعب العربى. إنه الهدوء الذى يسبق العاصفة.

***

٧- المواطنـــة (*)

تتكاثر الأحزان عند العرب والمسلمين عندما يرون أن الأوطان مهددة بالانقسام فى العراق والسودان وأفغانستان وپاكستان على نعرات عرقية أو طائفية. وانزوت فى طى النسيان مفاهيم المواطنة والقومية والأمة. وهى المفاهيم الموحِّدة التى استطاعت توحيد هذه المنطقة عبر التاريخ عبر إنشاء دول تاريخية وطنية أو إسلامية أو قومية قبل أن تنهار إلى دويلات قطرية تتجاذبها مخاطر التجزئة إلى فسيفساء عرقى وطائفى. وعاود الحنين إلى الدولة الوطنية الواحدة التى يتساوى فيها الجميع أمام القانون كما قال الطهطاوى «فليكن هذا الوطن مكانا لسعادتنا أجمعين، نبنيه بالحرية والفكر والمصنع». وكما رفع الليبراليون شعار «الدين لله والوطن للجميع» بل وكما كتب القدماء رسائل فى «الحنين إلى الأوطان»، وكما ذرفت أعين الرسول وهو يغادر مكة وهى أحب المدن إلى قلبه. كما عاود الحنين إلى الدولة القومية، من المحيط إلى الخليج، وكما رفع البعث شعار «أمة عربية واحدة، ذات رسالة خالدة» أو «إذا كان محمد كل العرب فكل العرب محمد». ويعاود الحنين إلى الأمة الإسلامية الواحدة حيث لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح، وإلى «ميثاق المدينة» الذى تتساوى فيها الأقوام والشعوب والطوائف فى إطار أمة إسلامية واحدة كان نموذجها السابق «حلف الفضول» الذى قام على إقرار السلام بين القبائل وعدم عدوان بعضها على البعض.

تبرز النعرات العرقية والطائفية والقبلية فى السودان بين عرب وأفارقة، عروبة وزنجية سواء فى الواقع أو بتضخيم أجهزة الإعلام الغربية للتدخل فى شئون السودان بغرض تقسيمه بين شمال وجنوب، وشرق وغرب من أجل حصار مصر فى الجنوب وتهديد مصادر المياه بعد حصارها فى الشمال فى الشام بخلق الكيان الصهيونى فيها.

(*) جريدة الاتحاد: ١٦ أكتوبر ٢٠٠٤م.

وأصبحت مشكلة دارفور ذريعة للتدخل الأجنبى الإنسانى والعسكرى من خلال القرارات الدولية لتكرار النموذج العراقى أو الأفغانى المعدل. ومع ذلك العيب فينا. فالسودانيون كلهم مواطنون. لا فرق بين عرب وأفارقة. وكلهم مسلمون، دماؤهم وأموالهم حرام. ولا يجوز شرعا تقوية فريق على فريق أو تسليح فريق ضد فريق. والجن فوق الجواد (جانجاويد) للدفاع عن حدود البلاد ضد الغزو الخارجى وليس للعدوان الداخلى. وتهدد الوحدة الوطنية فى العراق مخاطر الانقسام العرقى والطائفى إلى سنة وشيعة وأكراد وتركمان وعرب. والعراقيون مواطنون مهما تعددت أعراقهم وطوائفهم. إنما العيب فى القهر السياسى وغياب التعددية السياسية. وقد كان صلاح الدين كرديا، وأحمد شوقى كرديا. وكان للأكراد أعظم الفضل على الحفاظ على الثقافة العربية ونشر مخطوطاتها وتأسيس مجامع لغاتها. وفى سوريا سنة وشيعة وعلويون ونصيريون وعرب دروز. وسوريا قلب العروبة. فيها تأسس أول حكم عربى. ومع مصر قامت أول تجربة وحدوية عربية فى تاريخ العرب المعاصر. لا حرب دون مصر، ولا سلام دون سوريا. وهى التى علمت العرب القومية العربية. وفيها نشأت حركة القوميين العرب، وليست الطائفية أو العرقية. إنما العيب فينا، غياب الديمقراطية الذى يسمح بالانزواء فى الثقافات التحتية تعويضا عن غياب الثقافة الوطنية. وفى لبنان، سنة وشيعة وموارنة بل وانقسام الشيعة إلى منظمة أمل وحزب الله. ومن الطائفية أن يكتب فى الميدان الرئيسى بطرابلس «طرابلس قلعة المسلمين». ومن المواطنة أن تكتب طرابلس قلعة اللبنانيين. يكفى درس الحرب الأهلية الذى لم تنصهر فيه الطوائف والأعراق فى قالب المواطنة اللبنانية دون توزيع المناصب السياسية طبقا للتوزيع الطائفى. وانقسام مصر إلى مسلمين وأقباط نيل من وحدة مصر الوطنية عبر التاريخ، وترويج لحملة دعائية فى الخارج تسمح للقوى الأجنبية بالتدخل فى شئون مصر الداخلية لحماية الأقليات. والخليج شيعة وسنة. ونحن الذين لم نعرب الخليج واهتممنا بثرواته أكثر مما اهتممنا بسكانه وقدرة الإسلام على التعريب بلا حدود. واليمن زيدية وشوافع، ولا أحد من عامة المسلمين يعرف هذه الخلافات الفقهية القديمة، والكل إلى رسول الله منتسب. يسعى فى الأرض ويكد ويكدح من أجل لقمة العيش. والسعودية نجد وحجاز وكلاهما رئتان لجسد واحد. وفلسطين عرب ويهود، والقضية ليست طائفية أو عرقية بل سياسية بالأصالة، شعب يحتل أرض

شعب آخر، ويزيحه خارجها. يعود المشردون إلى أرض ويتحول شعبها إلى مشردين. والمغرب العربى عرب وبربر. والبربر هم الذين حملوا الإسلام، وفتحوا الأندلس، وتعربوا عن طيب خاطر. والقهر السياسى يعم الجميع العرب والبربر. والأردن بدو وحضر. وهى تفرقة من علم الاجتماع الغربى لتفتيت المواطنة تحت ذريعة تنوع العادات والتقاليد داخل الوطن الواحد. وفى دول الجوار يستمر خطر تقسيم الدول الإسلامية إلى أوزبكيين وباشتون فى أفغانستان، وشيعة وسنة فى باكستان، ومسلمين ومسيحيين فى إندونيسيا والفلبين، وصينيين وهنود وماليويين فى ماليزيا. بل تتهدد الوطن الواحد القبلية والعشائرية فى العراق، والبيوتات الكبيرة فى لبنان. بل إن وحدة الأوطان التاريخية تهتز أحيانا تحت معاول الجغرافيا بين الشمال والجنوب أو الشرق والغرب فى الدول المترامية الأطراف مثل مصر والعراق والسودان. وترعى كل دولة طائفتها خارج حدودها. فإيران راعية الشيعة فى الخليج والعراق ولبنان، وتركيا راعية التركمان فى العراق. والسعودية راعية أهل السنة. والفاتيكان راعى مسيحى الشرق، وأمريكا راعية الأقباط. ومسيحيو الشرق أرثوذكس وكاثوليك وانجيليون. والمسلمون فى أفريقيا بهائيون وأحمديون وإسماعيليون، وفى فلسطين يهود وعرب أو يهود ومسلمون وليست قضية تحرر وطنى ضد احتلال.

وهى أوضاع موروثة يتحمل الماضى والحاضر وزرها. وينوء المستقبل بحملها. سماها الإسلام الجاهلية وهى النعرات القبلية. فآخى بين الأوس والخزرج. ولا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى. العروبة ليست بأب أو أم إنما العروبة هى اللسان. والناس جميعا أخوة «وأنا شهيد على أن عباد الله إخوان». والكل لآدم وآدم من تراب. وقد شهدت بذلك فطرة البشر فى «حلف الفضول» قبل الإسلام، و«ميثاق المدينة» و«العهد العمرى» بعد الإسلام.

وفى أتون الصراع السياسى نشأت الشعوبية بين العرب أساس الحكم الأموى، والفرس أساس الحكم العباسى. وتفككت عرى الأخوة الإسلامية بعد عصر الفتوحات إلى عرب وموالى وزنوج ونبط وتركمان حتى التتار والمغول. وطغت العرقية والطائفية على هوية الأمة. وحاول النظام «المللى» العثمانى العودة إلى تجسيد «ميثاق المدينة» بتجميع الملل والأقوام داخل دولة الخلافة. ثم سيطر العنصر التركى،

ونشبت الحروب بين الصفويين والعثمانيين. ووقعت مذابح الأرمن، وعلقت المشانق للقوميين العرب فى دمشق للمحافظة على وحدة الإمبراطورية العثمانية ضد مخاطر التجزئة، والدول الغربية والقوى الكبرى تقف لها بالمرصاد. وآثرت المركزية على اللامركزية حتى خسرت تركيا الحرب الأولى. ثم قضى على الخلافة، واحتلت الأوطان التى استبدلت احتلالاً باحتلال. وخلفت القوى الاستعمارية الكبرى، بريطانيا وفرنسا، تركيا فى الوطن العربى. واحتلت هولندا وإسپانيا وبلجيكا وإيطاليا باقى ممتلكات الرجل المريض.

ثم نشأت الدول «الوطنية» الحديثة بعد حركات التحرر الوطنى على النموذج الغربى والإبقاء على الحدود التى ورثتها الدول من الحقبة الاستعمارية. فتوزعت القبائل والطوائف على عدة دول. وتآكلت الحدود الحديثة لصالح النعرات القبلية والطائفية القديمة. واهتمت نظم الحكم بالسلطة، وليس بالشعب. فظلت الدولة الوطنية الحديثة قائمة على أسس عائمة من الموروث القبلى الطائفى القديم، وليس على فكرة المواطنة التى يتساوى فيها كل المواطنين فى الحقوق والواجبات دون تمييز عرقى أو طائفى. بل إن معظم الحركات الوطنية قد قامت كحركات جهادية إسلامية سلفية فى المغرب العربى، علال الفاسى بالمغرب الأقصى، وحركة العلماء المسلمين بالجزائر، وعلماء الزيتونة بتونس، والسنوسية بليبيا، والأفغانى فى مصر، والمهدية فى السودان، وحزب الله فى لبنان، والأئمة الأحرار باليمن، والوهابية فى الحجاز، وحماس والجهاد فى فلسطين. ومن القبائل قامت الثورة بالجزائر. وساهم نصارى الشرق، وأقباط مصر، وشيعة لبنان فى حركات التحرر الوطنى وانصهرت فيها.

وسرعان ما انحسر الاستقلال عن الدولة الوطنية والتى أخفقت فى المحافظة عليه، لانشغالها بالسلطة والحكم، وممارستها شتى صنوف القهر ضد رفقاء النضال بالأمس، وخصومها السياسيين اليوم. وانتهى التحديث الليبرالى الذى قامت به الدولة الوطنية والذى تحول إلى تغريب ثقافى وإقطاع زراعى. ثم أخفقت الدولة القومية بالرغم من إنجازاتها فى إكمال حركات التحرر الوطنى والتصنيع، وتحالف قوى الشعب العامل، وتأسيس المشروع القومى الاشتراكى الحديث بعد هزيمة يونيو- حزيران عام ١٩٦٧م، واحتلال كل فلسطين بعد أن ضاع نصفها فى العصر الليبرالى فى عام ١٩٤٨م، والنصف الثانى فى المد القومى فى عام ١٩٦٧م.

وبدأت المغـالاة فى القطرية: مـصـر أولا، الأردن أولا، الكويت أولا. وبدأت الهويات الثقافية التاريخية القديمة فى الظهور لمزيد من التفتيت القومى فى فرعونية مصر، وفينيقية لبنان، وآشورية العراق، وقبائلية المغرب. «مصر أمنا» وليست الشقيقة الكبرى. غزاها العرب ولم يفتحوها. وقاومهم المصريون قرونا وقرونا فى الصعيد.

وبدأ الاختراق الثقافى والحضارى للثقافة العربية. وتناحر يصل إلى حد الحرب الأهلية بين السلفيين والعلمانيين كما هو الحال فى الجزائر والذى كلف ما يقرب من مائة ألف شهيد. هذا فرانكفونى وذاك أنجلوفونى. هذا رأسمالى وذاك اشتراكى. هذا أمريكى تطبيعى مع العدو الصهيونى وآخر عولمى يريد الانخراط فى السوق. فرأس المال ليس له وطن.

تشتت الأوطان، وتبعثرت الولاءات لأن مفهوم المواطنة لم ينغرس بعد فى ثقافتنا الوطنية لحساب الرفيق أو الأخ. وعاد رنين صوت عبد الناصر يفتتح بها خطاباته «أيها الأخوة المواطنون». فهل تستطيع الوطنية والمواطنة أن تشفى جراح النعرات العرقية والطائفية حفاظا على وحدة الأوطان؟ وهل تستطيع المواطنة أن تكون عنصر توحيد للأمة؟

* * *

٨- هل انتهت الطبقة الوسطى؟(*)

درج الفلاسفة المثاليون على اعتبار الأخلاق قواعد عامة ومعايير مطلقة للسلوك ترشد الناس إلى ما ينبغى أن يكون. فهى أخلاق معيارية ومبادئ مطلقة لا تتغير بتغير الزمان والمكان، ولا تتبدل بتبدل الشعوب والأوطان. فى حين يرى فريق آخر من الفلاسفة الاجتماعيين أن الأخلاق علم وصفى، يقرر ما هو كائن، ولا يضع ما ينبغى أن يكون. يصف سلوك الناس وبواعثهم على السلوك. وهى مرتبطة بالتقاليد والأعراف والعادات. تتغير بتغير المجتمعات، وتتعدد بتعدد الأزمان. بل وتختلف فى المجتمع الواحد من طبقة إلى أخرى بل ومن فرد إلى آخر داخل الطبقة الواحدة.

لذلك استعمل لفظ «أخلاقيات» فى صيغة الجمع ليشير إلى كثير من أنماط السلوك الأخلاقى الاجتماعى. ولا يوجد فصل بين فكر الطبقة المتوسطة وقيمها وسلوكها. فالأخلاق نظر وعمل، فكر وسلوك، قيمة وممارسة.

ويصعب تحديد الطبقة المتوسطة. بل تتحدد نسبيا فى علاقتها بالطبقة العليا والطبقة الدنيا. تحديدها بالسلب أى ما ليس طبقة عليا أو طبقة دنيا. ولا توجد حدود فاصلة بين الطبقات الثلاث. حدودها ليست كمية بل كيفية. ليس بالدخل وأسلوب المعيشة والتعليم بل بأنماط السلوك الذى يعبر عن وضع نفسى اجتماعى. لا تنتهى الطبقة المتوسطة فى أى مجتمع بل تضيق أو تتسع طبقا لتوزيع الدخل. تضيق إذا كان التفاوت بين الأغنياء والفقراء شاسعا. وتتسع إذا ما جمعت بين غنى الأغنياء وفقير الفقراء. تضيق فى مجتمع الإقطاع، وتتسع فى المجتمع الليبرالى.

ولا توجد حتمية تفرض فيها الطبقة سلوكها على الأفراد نظرا للتميز الشهير بين الطبقة والوعى الطبقى. فقد يسلك بعض الأغنياء الجدد سلوك الطبقة الدنيا التى

(*) جريدة الاتحاد: ١٣ نوفمبر ٢٠٠٤م.

ترسبت فى اللاوعى الطبقى. وقد يسلكون طبقا لسلوك الطبقة الوسطى نظراً لما حصلوا عليه من بعض مظاهر السلطة الاجتماعية. وقد يسلكون سلوك الطبقة العليا فى مظاهر الثراء. وقد يسلك بعض أفراد الطبقة العليا سلوك الطبقة الوسطى، أداة التحديث وبناء الدولة. وقد ينضم إلى الطبقة الدنيا دفاعا عن مصالحها، وانتماء لمطالبها، وتحقيقا لحاجاتها. وقد ينتمى بعض أفراد الطبقة الوسطى إلى الطبقة العليا لمزيد من الرقى الاجتماعى والثراء. وقد ينتمى إلى الطبقة الدنيا لأنه خرج منها ومازال يحن إليها. فالطبقة المتوسطة فى حراك اجتماعى دائما إلى أعلى وإلى أدنى مثل كل الطبقات الاجتماعية.

وأخلاقيات الطبقة قضية رئيسية فى مصر المعاصرة. برزت بوصفها سلوكًا فى الحياة اليومية فى مظاهر الثراء للطبقة العليا فى الأفراح والقصور والفيلات ومظاهر الاستهلاك، وما يصاحب ذلك من تهريب الأموال والتلاعب بالأسواق. كما برزت فى سلوك الطبقة المتوسطة فى التشبه بالطبقة العليا واستعمال السلطة السياسية للإثراء. كما تبرز فى سلوك الطبقة الدنيا باقتناء بعض وسائل الترفيه الحديثة كالتلفزيون والراديو الكبير والثراء السريع من خلال الأعمال اليدوية.

وأفضل منهج للدراسة هو المنهج الوصفى. وهو المنهج «الظاهراتى» أى وصف التجارب الحية التى تكمن وراء السلوك الاجتماعى بعيدا عن النظريات الاجتماعية والإحصائيات الكمية، وتنظيرا مباشرا للواقع، وتحليل التجارب الحية التى يعيشها العالم- المواطن، جمعا بين هموم الفكر وهموم الوطن.

لم تكن هناك طبقة متوسطة فى تاريخ مصر الحديث. كان هناك الأشراف والعلماء ورجال الدين وكبار التجار والأمراء من ناحية. والحرفيون وصغار التجار والباعة الذين غنى لهم سيد درويش وكتب لهم بيرم التونسى أزجاله من ناحية أخرى. وسادت دولة محمد على هذه الثنائية الحادة بين الحكام الأتراك وممثلى الدول الأجنبية من جانب والفلاحين من جانب آخر بعد أن قضى على المماليك. وفى النصف الأول من القرن العشرين ساد الإقطاع، مجتمع النصف فى المائة. وتحكم كبار الملاك فى الثروة والحكم فى مقابل المعدمين من الفلاحين. ولم تكن طبقة العمال قد ظهرت بعد لقلة التصنيع.

وبعد ثورة عام ١٩٥٢م بدأت الطبقة المتوسطة فى الاتساع من صغار الملاك فى الريف وموظفى الشركات الأجنبية بعد التأميم والتمصير وكبار موظفى القطاع العام وضباط الجيش ورجال الحزب والدولة. وتضخمت شيئا فشيئا بدخول الرأسمالية الوطنية وتجار الجملة وقطاع المقاولات مما دفع إلى إصدار قوانين إصلاح زراعى ثانية وثالثة وقوانين يوليو الاشتراكية فى عام ١٩٦٢ - ١٩٦٣م. ورفع شعار تذويب الفوارق بين الطبقات، والعدالة الاجتماعية والمساواة، وتكافؤ الفرص، وعدم تفاوت الدخول بأكثر من ١ : ١٠، ومضاعفة الدخل القومى كل عشر سنوات مرة. وعُدَّت الطبقة المتوسطة القيادة السياسية والعسكرية هى المسئولة عن هزيمة عام ١٩٦٧م بعد أن ترهلت. وكانت أولوياتها الدفاع عن النظام قبل الدفاع عن الوطن. وبيان ٣٠ مارس عام ١٩٦٨م هو نقد لها، وورقة أكتوبر عام ١٩٧٤م بداية جديدة لها.

وفى الجمهورية الثانية اتسع نطاقها بعد الانفتاح الاقتصادى، وقوانين الاستثمار، وازدهار القطاع الخاص، وحرية البنوك فى التداول بالعملات الأجنبية، وتعويم العملة المحلية، والمضاربة فى العقارات، ووسائل الإثراء السريع، والتهرب الضريبى. واستشرى الحال فى الجمهورية الثالثة حتى اتسع نطاقها بالصعود إلى أعلى بل ونافست الطبقة العليا وحلت محلها. فى حين هبط جزء منها إلى أسفل من صغار الموظفين والحرفيين والعمال. وعاد المجتمع المصرى كما بدأ من قبل بالتفاوت الشديد بين الأغنياء والفقراء. وورث الأغنياء الجدد طبقة الإقطاع والباشوات القديمة التى حلت محل المماليك فى مصر المعاصرة. وأصبح الحزب الحاكم عصب هذه الطبقة والطريق إليها.

صحيح أن الطبقة العليا التقليدية سواء طبقة المماليك الأولى أو طبقة الباشوات الثانية كانت طبقة وطنية فى مجملها. تدافع عن البلاد كما دافع المماليك عن مصر ضد الحملة الفرنسية. وقد عرض باشوات مصر على إسماعيل سداد ديون مصر حفاظا على استقلالها وحماية لها من التدخل فى شئونها بالحماية أو العدوان المباشر. وقام بعض باشوات مصر فى النصف الأول من القرن العشرين بأوائل الصناعات الوطنية، وإنشاء بنك مصر، وميكنة الزراعة، وإنشاء الجامعات والصحف والجمعيات العلمية والأدبية. فهى طبقة متعلمة وكفؤ. بيدها التحديث. تتسم بنظافة اليد والعفة عن

الصغائر . وتقدر الأدب والفن الرفيع . وتدافع عن التعددية السياسية والحياة البرلمانية . وتمارس ليبراليتها تحت قبة البرلمان وشعار الدستور . وتعرف كيف تخطط المدن وتقيم العمران . وفى هذه الفترة ازدهر علماء مصر وفنانوها وشعراؤها . ومازال الحنين إلى هذا العصر قائما فى وجدان المصريين .

ومهما قيل عن «وداعًا للطبقة الوسطى» بوصفها طبقة اجتماعية فإنها مازالت موجودة بوصفها سلوكا أخلاقيا . صحيح أن التفاوت الشديد بين الأغنياء والفقراء فى العقود الثلاثة الأخيرة قسم الطبقة الوسطى إلى طبقة وسطى عليا انضمت إلى الطبقة العليا لانشغالها بالكسب السريع وانضمامها لطبقة رجال الأعمال ، وطبقة وسطى دنيا بقيت على دخلها الرسمى الحكومى ومرتبها الثابت ولم تستطع مجاراة ارتفاع الأسعار ، وليس لديها وسائل الكسب السريع فانضمت إلى الطبقة الدنيا . بهذا المعنى تضيق الطبقة الوسطى بينما يزداد اتساع الطبقتين العليا والدنيا . ومع ذلك يبقى سلوكها ، وتستمر قيمها . فمازالت تمثل جهاز الدولة وعنصر الاستمرار والبقاء .

* * *

٩- أخلاقيات الطبقة الوسطى(*)

ومع ذلك فأخلاق الطبقة العليا «الناس اللى فوق» فى معظمها أخلاق النهم. فالحراك الطبقى إلى أعلى بلا حدود بحيث يصبح الثراء غاية فى ذاته. وتتمايز فى الطبقة العليا ثلاث طبقات أخرى، عليا دنيا، وعليا متوسطة، وعليا عليا. لا قانون يوقفها، ولا قيمة تروعها إلا ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]. تتحايل على القانون، وتتهرب ضريبيا. بل وتساعد النظام السياسى فى أزماته الاقتصادية بحيث تصبح السلطة للثروة وليس للقوة. فالثروة قوة. ويتحكم الاقتصاد فى السياسة. ويوجه أصحاب رءوس الأموال رجال السياسة. والتهرب الضريبى يخرق حقوق الدولة، وحرمة المال العام. لا فرق بين تهريب الأموال إلى الخارج وإيداعها فى الداخل. فرأس المال لا وطن له. لا فرق بين الشرعى واللاشرعى، بين الصحيح والفاسد بل منطق الزيادة.

قيمها الاستهلاك، ومتع الحياة، والوراثة، والمصاهرة داخل الطبقة حفاظا على الثروة داخلها. ولا ضير من تعدد الزوجات أو الخليلات من نجوم المجتمع سواء من الأميرات أو من الفنانات. الزواج والطلاق ارتباط وانفصال كعقود الشركات. ولا مانع من مظاهر التدين والتقوى، وبناء المساجد، ودور الأيتام، وموائد الإفطار فى رمضان، وتأسيس الجماعات الخيرية، والتستر بالدين حفاظا على الثروة من الحسد، وتشريعا داخليا للنفس بأن الثروة حلال، رزق من الله للخيرين من العباد.

أما أخلاق الطبقة الدنيا «الناس اللى تحت» فإنها تقوم على غريزة حب البقاء. وتتحكم فيها آلياته. وهى تشبه الطبقة العليا بأنها بلا قانون أو نظام ليس من أجل الثراء ولكن من أجل البقاء. لم يعطها النظام شيئا. فتبادله جحدا بجحد، وإجحافا

(*) جريدة الاتحاد: ٢٠ نوفمبر ٢٠٠٤م.

بإجحاف. تسكن فى المناطق العشوائية. ولها وسائل معيشتها، وطبيعة علاقاتها الاجتماعية. تفرض فنها الذى يغلب عليه الإيقاع السريع، والكلمات الهابطة. ولها لغتها المالية، ومصطلحاتها الشعبية فى الحياة اليومية. لا فرق بين الدين والمخدرات. كلاهما نسيان لهموم الواقع بعد أن غابت هموم الوطن. يكثر الزواج كما يكثر الطلاق نظرا لأنهما بلا تكلفة. وتنتشر الخيانة الزوجية والعلاقات الجنسية الحرة. وتقرن صباياها بعواجيز الخليج من خلال المتعهدين، ومقاولى الأنفار، ومكاتب التشغيل. ولها فتواتها كما لها حرافيشها. وتمارس المحرمات الثلاثة: الدين والسلطة والجنس بلا رقيب.

قيمها الاستكانة والرضا والصبر. ولها أمثالها العامية. القضاء والقدر يسيّران كل شيء. والقسمة والنصيب يتحكمان فى أرزاق الناس. الرضا بالقليل فى الدنيا له ما يعوضه فى وفرة الآخرة. سعيدة فى وهمها، راضية بحياتها، وتتوكل على الله. وعن طريق وسائل الكسب غير المشروعة مثل تجارة المخدرات والجنس والبضائع المهربة تتمايز الطبقات فيها إلى طبقة دنيا دنيا، ودنيا متوسطة، ودنيا عليا. وتتشبه بالأغنياء وبسلوكياتهم تحقيقا لحلم لن يتحقق وأمل خادع. يهاجر البعض منهم إلى بلاد النفط. ويعودون بسلوكيات العمال المهاجرين.

فإذا ما اندلعت الشرارة هبت وانطلقت إلى الشوارع تأخذ حقوقها بأيديها. تدمر مظاهر الترف فى الفنادق الفاخرة والملاهى الليلية والمحلات الكبرى بل وأقسام الشرطة ووسائل المواصلات التى يعانى منها، وترمز للدولة. فى رأيها هى هبة شعبية وفى رأى النظام «انتفاضة حرامية» كما حدث فى يناير عام ١٩٧٧م ثم فى حوادث الأمن المركزى فى يناير عام ١٩٨٦م، وكما هو متوقع فى كل لحظة يزداد فيها الضنك، وتضيق سبل العيش، وتطول طوابير الخبز.

أما أخلاقيات الطبقة الوسطى، «عيلة الدوغرى» فهى بيت القصيد. وكما قامت أخلاق الطبقة العليا على «النهم»، والطبقة الدنيا على «البقاء» فإن أخلاق الطبقة الوسطى تقوم على «القانون والنظام». هى أخلاق الأمن والاستقرار، وإبقاء الوضع القائم على ما هو عليه. فالطبقة المتوسطة هم رجال الدولة وأجهزة الحكم. وهى مازالت أداة التحديث، وقادرة على البناء والعمران. فمن مصلحتها الاستقرار والنظام

ومراعاة القانون حتى تبقى فى المناصب. السلطة السياسية لها الأولوية على السلطة الاقتصادية. فالسلطة جاه وقوة أولا قبل أن تكون مالا وثراء. هى أخلاق «الهندام» و«الميرى» و«الإتيكيت». و«البروتوكول»، أخلاق القواعد والحساب. هى أخلاق الاعتدال دون التطرف نحو أخلاق الطبقة العليا أو أخلاق الطبقة الدنيا. وبقدر ما هى ليبرالية فى رؤية العالم إلا أنها تمارس أخلاقا تقليدية محافظة رعاية للتقاليد، وحفاظا على الهوية. والتواصل خير من الانقطاع. هى أخلاق «الأفندية» و«الضباط» حفاظا على الأمن الفكرى، ودفاعا عن الأمن الوطنى. هى أخلاق السيف والقلم، المعسكر والجامعة. تبرر سلطة الحكم وتدافع عن أيديولوجية النظام. وقد ينضم إليها رجال الدين الذين يوفرون الشرعية الدينية للنظام كما يوفر المثقفون له الشرعية الأيديولوچية.

ومع ذلك هى طبقة انتهازية، تتطلع إلى الصعود إلى الطبقة العليا كما تتطلع الطبقة الدنيا إليها. لذلك تتمايز فيها الطبقات إلى طبقة متوسطة دنيا، ومتوسطة متوسطة، ومتوسطة عليا. وتتسع رقعتها إذ تتلاحم الطبقة المتوسطة الدنيا مع الدنيا العليا. كما تتلاحم الطبقة المتوسطة العليا مع العليا الدنيا.

تقوم بنشاط اقتصادى ليبرالى دون أن تتحقق بقيم الليبرالية. فهى تعيش فى مجتمع تقليدى، وفى ثقافة موروثة. فهى ليبرالية فى الظاهر، تقليدية فى الباطن. الدين بالنسبة لها أيضا طاعة وامتثال، ونظام كونى كما هو نظام اجتماعى. تميز بين الفضيلة والرذيلة، والخير والشر، والصواب والخطإ، والشرف والعيب، والصحيح والفاسد. تسن القوانين، وتضع الدساتير، وتستقل بالقضاء حفاظا على العدل والميزان. لذلك نزعت أخلاقها نحو المثالية، ما يجب أن يكون، والالتزام، والواجب، ونقاء الضمير.

تتميز بالوعى السياسى فهى أداة الحكم. وتمارس حرية الفكر فى نطاق الأمن والاستقرار. لديها وعى ثقافى وفنى، وحسى حضارى. تنعم بالفكر والإطلاع ومشاهدة الأعمال الفنية. هم رواد الأوبرا والمسرح وصالونات الأدب والفن. ربما ينقصها الوعى التاريخى لأنها لا تعى حركة المجتمع، وقوانين التاريخ. تتصور المجتمع فى ثبات اجتماعى، والطبقة المتوسطة سيدة فيها.

الأخلاق من صنع الطبقة المتوسطة. وهى دعامة الاستقرار الاجتماعى. وكلما اتسعت الطبقة المتوسطة زاد الأمن والاستقرار. هى جسم المجتمع، تحفظه من القلاقل

والاضطراب. تحوز بثقة الطبقتين، الدنيا والعليا. إذ تحقق للدنيا مطالبها فى العيش المستقر وتوفير الحاجات الأساسية. وهى الواسطة بين الحاكم والمحكوم. وتحقق للطبقة العليا مطالبها فى الأمن والاستقرار. فهى أداة الحكم والجهاز التنفيذى. ومنها يخرج القضاة والمحافظون. هذا ليس دفاعا عن الطبقة المتوسطة بل هو وصف وظيفى لها فى البناء الاجتماعى. هو إقرار واقع، وليس تشريع مبدإ.

وهى أخلاق لا تنتهى بانتهاء الطبقة الوسطى أو بانحسارها بل تبقى سلوكًا اجتماعيًا. سمتها الأدبيات الماركسية التقليدية، أخلاق البرجوازية وقيمها. ومهما تغيرت المصطلحات والأيديولوچيات إلا أن الحقائق بوصفها سلوكًا اجتماعيًا تظل باقية.

فإذا كانت أخلاق الطبقة العليا هى أخلاق الثراء وأخلاق الطبقة الدنيا هى البقاء فإن أخلاق الطبقة الوسطى هى الأمن والاستقرار. تقوم بحاجز يمنع التناقض الاجتماعى بين الأغنياء والفقراء لصالح التجانس الاجتماعى والتوازن الطبقى. مثالية فى الظاهر وانتهازية فى الباطن. والسؤال هو: إلى أى مدى يمنع التوازن من الصراع؟ وإلى أى حد تأمن الطبقة المتوسطة من حكم الطغاة أو ثورات الشعوب؟

***